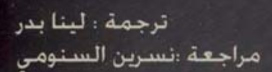
#4

إريك إيمانويل شميت



14.9.2018





إريك إيمانويل شميت

ليلة النار

ترجمة: لينا بدر

مراجعة: نسرين السنوسي





عنوان الكتاب الأصليّ

LA NUIT DE FEU

Éric-Emmanuel Schmitt

الكاتب: إريك إيمانويل شميت

عنوان الكتاب: ليلة النار

ترجمة: لينا بدر

مراجعة: نسرين السنوسي

ر.د.م.ك: ٣-٠٠- ٩٨٩-٩٩٩٦٦-٩٧٨

ISBN 9789996698903



الطبعة العربية الأولى - ٢٠١٧

منشورات تكوين للنشر والتوزيع

الكويت - الشويخ الصناعية الجديدة

تلفون: 0096598810440

الموقع الالكتروني: www.takweenkw.com

البريد الالكتروني: takween.publishing@gmail.com

مسكيلياني للنشر والتوزيع

15 نهج أنقلترا تونس- تونس العاصمة

الهاتف: 21512226(216+) أو 93794788(216+)

الإيميل: masciliana_editions@yahoo.com

(1)

أظنّني أحببتُ تمنراست[1] في اللّحظة نفسها الّتي لاحت لي فيها المدينة من وراء نافذة الطّائرة. ما إن غادرنا الجزائر العاصمة حتّى بدأنا نحلّق فوق القمر، لم نكن نرى على امتداد كيلومترات إلّا الأرض الرّمليّة الجرداء القاحلة، أرضَ رمال وحجارة وصخور يرتسم فيها الطّريق المستقيم الّذي تسلكه سيّارات الجيب والشّاحنات والقوافل مثل ثلم خطّه ظفر. بدأتُ في الحال أفتقد صور الأشجار والحقول الخصبة والأنهار المتعرّجة. هل سأتحمّل المسير لمدّة أسبوعين في الصّحراء؟ كنت أخشى العراء والأمكنة المتحجّرة، والهواء الخالي من حبوب الطّلع، والطّبيعة الّتي لا تعرف الفصول. هل كان ذلك لأنّي كنت أنظر من السّماء بازدراء فأرى تلك الأرض فقيرة؟ كانت بين الفينة والأخرى تلوح لنا واحة، أو لفيف من الأشجار الخضر يختلط فيها النّخيل والتّين والتّمور حول مرتفع من الأرض، فأهمس منفعلًا حينذاك: «تمنراست»، لكنّ جاري في المقعد كان يُصحّح لي: هذه «غردايا» أو «الغوليا» قلعة المائة فاكهة، أو «عين صلاح». ثمّ لا تفتأ الرّتابة تعود من جديد لتستحوذ على الأصقاع السّاكنة...

---

(1) مدينة على اسم ضابط من أيام الاستعمار الفرنسي تقع في أقصى جنوب الجزائر وهي عاصمة الطوارق. ترتفع 1400 متر عن سطح البحر. (المترجمة).

وبعد رحلة استغرقت نصف نهار، لاحت تمنراست أخيرًا. أعلن ذلك طيّار الرحلة. وفاجأتني وداعةُ الموقع: تسترخي المدينة داخل أرض محصورة، يحتضنها ذراعان مثنيّان من الغرانيت تنفتح بهما وهي في حمايتهما. وبين المنحدرات القاسية لاحت أكواخ صغيرة مكعّبة الشّكل من الصّلصال الزّعفرانيّ، ذكّرتني بنماذج التّصاميم الّتي كنت أصنعها بنفسي في طفولتي كي أزيّن الطّريق المتعرّج لقطاري الكهربائيّ.

ما إن وطأت قدماي خارج الطّائرة حتّى عانقتني أنفاس هذه الأرض، وداعبت أذنيّ، ولامست شفتيّ، وأدركت موقنًا أنّ الصحراء كانت تقدّم لي، بهذه الملاطفة، عناقَ التّرحيب.

وضعنا حقائبنا في الفندق بعد أن عثرنا عليه لحسن الحظ بفضل لافتةٍ عُلِّقَت بالمسامير كيفما اتّفق، وعداها لا شيء كان يميّز المبنى من جواره غير طاولة من الخشب الأصفر لها شكل مكتب الاستقبال. هناك وجدنا موسى في انتظارنا، موسى ذاك الطارقيّ الّذي بادلناه الرّسائل عبر الفاكس والهاتف خلال الشّهر الماضي. أرسل إلينا ابن البلد معلومات كنّا في حاجة إليها لكتابة السّيناريو. كان موسى طويل القامة، مستقيم الوقفة، نحيلًا، غيرَ عريض الكتفين، يرتدي لباسًا من القطن الأسود يغطيه كليًّا، بشرته سمراء تشوبها حُمرة. ويومها استقبلنا بابتسامة رحبة مرحة كأنّنا من أقاربه، ودعانا إلى العشاء في بيته.

لطالما أربكني كرم الضيافة، إذ أنّي نشأتُ في مدينة ليون، الحاضرة الباردة المتقوقعة، حيث لا يمكن استقبال صديق إلاّ بعد أشهر،

بل بعد سنوات من الامتحانات الدّقيقة. فاستقبال ضيف في المنزل يتوقّف على منحه شهادة تعني «يمكن معاشرته». أمّا موسى فلم يكن يعرف عنّا شيئًا، وكان مغتبطًا باستقبالنا، فتح لنا باب بيته دون تردّد، بيت يفوق صاحبَهُ عفويّةً وبساطةً بكلّ ما يحتويه.

تراه متخفّيًا وسط زقاق تتشابه فيه المنازل مثل خلايا النّحل. هذا المسكن المنخفض السّقف، المبنيّ من الغضار، لم يكن يضمّ سوى غرفتين صغيرتين: المطبخ، وغرفة المعيشة. ولم أرَ الغرفة المعزولة المحجوبة بستارٍ من القماش القطنيّ حيث كانت زوجة موسى وبناته يحضّرن الطّعام. ومقابل ذلك أمضيت السّهرة في الغرفة الخالية، غرفة بالغة النّظافة تتحوّل كل ليلة إلى غرفة نوم للعائلة بأكملها. ورغم التّقشّف في غياب الأثاث وتحف الزّينة والصّور، بدا لي الكُسكُس باذخًا، ملوّنًا، وقد صُفَّ لحمه وخضاره كجواهرَ فوق وسادة من طبيخ السّميد. أمّا الشّاي بالنّعنع، فقد كان أثرُه أقوى من خمرة الكروم: كان حلوًا، ممسّكًا، مطيّبًا، ينتشر مذاقُه في فمي نكهاتٍ تتراقص مجتمعةً متماسكةَ الأيدي، غريبةً تارة، ومألوفةً تارة أخرى، وأحيانًا طاغية، حتّى جعلت رأسي يترنّح.

خارج البيت حلّ اللّيلُ فجأةً، ومعه الحرارة أيضًا. وفي غضون عشرين دقيقة، بدّلت سماء الغسق لونها الأرجوانيّ إلى نسمةٍ أنعشت السّهل الخالي من العشب والدّغل، ثم سادت ظلمةٌ قاطعة تخنق حتّى الرّيح.

كان الحديث ينساب سَلِسًا متدفّقًا على نورِ مصباحٍ صغيرٍ خافتٍ ينشر على وجوهنا ضوءًا ذهبيًّا شبهَ سائل. وكنّا، أعني جيران

مخرج الفيلم وأنا كاتب السّيناريو، -وقد جلسنا على الأرض- نُرَاكِمُ الأسئلة على مُضِيفِنَا. أمّا هو فقد كان يجيب بصوت رخيم ذي نبرة لذيذة حُلوة.

لم يدهشني كلام الطارقيّ بقدر ما أدهشتني يداه: يدان دقيقتَان، تندرج فوق راحتَيْهما النّحيلتين أصابع رفيعة دقيقة مثل أرجل العناكب. كانتا تلتفتان نحونا باستمرار، وتغدقان علينا بالطّعام والشّرح. فاطمأننت في الحال لهاتين اليدين الغريبتين.

كنّا نتحدّث عن حياة الطّوارق... وإن كان موسى يمتلك بيتًا في تمنراست، فإنّه يظلّ بدويًّا رحّالةً يجوب الصّحراء تسعة أشهر في السّنة. كان يتناوب السّكن بين خيمةٍ من حجر وأخرى من قماش، لهذا كانت أملاكه من ملابس وأوعية طبخ، وغسيل، تُجمع على عجل، يحملها هو وعائلته. ولم يكن يحتاج البتّة إلى الكراسي ولا إلى الأسرّة، ولا الأبواب أو الأقفال أو المفاتيح...

- أين تخفي هاتفك يا موسى؟ وجهازك الفاكس؟

شرح لي بكلّ انشراح أنّ صهره يدير وكالة للسّفر على بعد عشرة كيلومترات، وأنّه ذهب إلى هناك عشرات المرّات. كان من البديهي في رأيه أنّ هاتفًا واحدًا وجهازَ فاكس واحدًا يكفيان لحاجات المنطقة. وكان يتباهى بقريبه الّذي يمتلك هذه التّقنية الحديثة. وبعد أن أطال الحديث عن النّجاح العائليّ، راح يصف لنا المناظر التي سنجتازها.

- *Bioutifoul!*، *بيوتيفول*...

لم يكن يستخدم سوى هذه الكلمة:

- *بيوتيفول*... !Biutifoul...

وبالإصغاء إليه، كنّا سندخل إلى أماكن *بيوتيفول!* وأخرى *بيوتيفول*. وإن كانت لغته تفتقر إلى التّنوّع، فإنّ نظرات التّعجّب المرافقة لها لا تنفكّ تزوّدها بتعليق: هنا المكان جميل، والآخر مهيب، وهنا مخيف، وهناك وادع. كان بإيماءاته يلوّن كلمة بيوتيفول هذه مثل رسّام عظيم.

إنّ ذاك الاهتمام الّذي كنّا نوليه لثقافة الطّوارق المدهشة كان يبدو لسفيرها موسى طبيعيًّا، وعند عودتنا، لم يسألنا قطّ عن حياتنا ولا عن بلادنا، ولا عاداتنا. ومن ثمّ اتّضح لي ما يؤكّد رحلتنا: في الصّحراء، لَا تَهْتَمَّ بأيّ شيء، فأنت مركز العالم!

وفي السّاعة العاشرة، افترقنا عن موسى ونحن نعيد على مسمعه العديد من *thank you*، وهو يزيد بمثلها من *Biutifoul*.

وسأل جيرار للمزيد من التّأكّد:

- ذكّرني ما اسم الفندق؟

- *Hôtel*.

- عفوًا؟

وشرح موسى ضاحكًا:

- إنّه فندق *Hôtel*. إلى عهد قريب، لم يكن هناك غيره، أمّا الآن، فقد بنت الحكومة فندق *Tahat*، لكنه لن يحلّ محلّ فندق *Hôtel*!

كان يخيّم على المدينة ليل هادئ لا يمتّ بصلة إلى الظّلمة الأولى، تلك التي أعقبت الغسق. كأنّ المكان اعتاد عليها...

وعلى امتداد العديد من أشجار الأثل[1]، لاحظتُ في الأرض المنخفضة أنّ بعض البيوت قد زُوّدت بالكهرباء. وبعد عذوبة السّهرة الرّائقة الّتي قضيتها حول قنديل الزّيت، تراءى لي الضّوء المخضرّ المنبعث من المصباح المستطيل وهو يصدر عبثًا نورًا وسخًا وظلماتٍ قبيحة كالثّؤلول... كان وميضه الفوسفوريّ يضايقني. كيف يمكن أن يبهر إلى هذا الحدّ دون أن ينيرَ إلاّ قليلا؟

كنت أتعثر في كل خطوة... هل هو الشّاي؟، أم الحديث؟، أم الجوّ؟ -وما أدراني؟- أسكروني... أو لعلّها الرّحلة قد أوهنت قواي... أوهو الابتعاد عن الوطن قد هدّ كياني... كان عليّ أن أستند عشر مرّات إلى حافّة جدار منخفض. كاحلاي يلتويان، وجسدي يرتخي من انقطاع غريب في أنفاسي.

قلق جيرار من أجلي، وظلّ ينظر إليّ متردّدا:

- هل أنت على ما يرام؟

ارتبكت خجلًا، وسعيت إلى استخدام آخر قواي كي أخفي اضطرابي.

- أنا بخير.

ولئن كان صوتي قد علا بهذه الكلمات كي أبدّد فضوله، فإنّي لم أكن أكذب. ورغم فقداني توازني كالمريض المرهق، كنت مرتاحًا، جذلًا، بل أكثر استرخاء ممّا كنت في باريس حيث كنّا نجري كلّ

---

(1) موطنها حوض المتوسط في المناطق الدافئة والأودية. ذكرت في القرآن الآية ١٦ من سورة سبأ. (المترجمة).

صباح. كان ضعفي يعبّر عن رؤية مبهمة غامضة، كأنّها حدس بأنّني سألاقي أرضًا مهمّة كانت في انتظاري... أو كنت في انتظارها...

- عمتَ مساءً.

- إلى الغد.

- في السّابعة والنّصف، في البهو، لا تنسَ يا إيريك.

- سأضبط منبّهي!

وقبل أن أدخل غرفتي في الفندق، رفعت بصري وأنا أعبر الفناء الخارجيّ. تداعت السّماء على رأسي. كانت النّجوم تتلألأ، قريبة، وامضة، حيّة نابضة، في متناول اليد. واللّامتناهي يبتسم لي. وفي لحظة واحدة، لامسني الإحساس بأنّي كنت على موعد مع ما هو استثنائيّ.

لكن هيهات! كنت أترنّح تعبًا، وخفضت بَصَرِي. تأخّر الوقت! ولا قوّة لي ولا حَولَ... لكنّني تمسّكت بمخطّطي بعناد: سأنام.

حين دخلتُ الحمّام، أزعجت ستّة صراصير، ثارت ثائرتها وقد فقدت كبرياءها وتناثرت فوق البلاط المثقّب. كانت تنبعث من الأنابيب رائحة أقدام وبراز. تراجعت وأنا أسدّ أنفي. الدّخول هناك سيوسّخني بَدَلَ أن ينظّفني! وفي كلّ الأحوال، هل كنت وسخًا حقًّا؟ كما أنّني سأنام بمفردي...

ورغم هوسي بالنّظافة، لم ألمس الصّنابير، وارتديت قميصًا آخر نظيفًا يفوح منه عطر الخزامى فمنحني الوهم بالنّظافة، ثمّ ارتميتُ على فراشٍ إسفنجيٍّ رقيقٍ فُرِشَ على سرير من الإسمنت، دُونَ أن أُلقي بالاً إلى الجدران الملطّخة بالبعوض المسحوق.

وغرقتُ في النّوم، نافد الصّبر لا من أجل مغادرة هذا العالم، لكن من أجل استرجاعه في أسرع وقت ممكن.

كان جليًّا أنّي حططت الرّحال في بلاد مجهولة، ورَسَوْتُ في وعد من الوعود.

(2)

لا أستيقظ بشكل كامل أبدًا، أجزاء منّي تبقى لصيقةً بالنّوم، ويصيب ذهني الرّكود، ويُخَدَّرُ عقلي فيجهل المكان الموجود فيه، تتحرّك أعضاء جسمي بمشقّة، وأفتقر إلى الكلمات والذّكريات، وحتّى اسمي، أحيانًا يهرب مني... أبدو كلَّ ليلةٍ كجثّةِ غريقٍ على حافّةِ شاطئٍ انخفض المدّ فيه. وأبقى على هذه الحال لمدّة غير محدّدة، أظلّ كشكل مفزع، أظلّ وَعْيًا يدرك أنّه موجود لكنّه مفرغ من المحتوى. ثمّ تعود هويّتي بطيئة إلى إيقاعها، كما يمتدّ الماء فوق ورقة نشّاف، وفي ومضة، أكتشف أنّني عدت أنا أخيرًا، واستعدتُ نفسي.

وفي ذلك اليوم، في فندق الأوتيل، لم أخرج عن القاعدة الّتي تحوّلني إلى غريق صباحيّ.

عندما أوشكت على النّهوض من السّرير وفتحت جفنيّ، صعقني نور شديد، يا لحدّة ذاك النّور! أسكتت أصابعي رنينَ المنبّه. وجال بصري فوق الجدران المكسوّة بالإسمنت الأبيض المصفرّ حيث كانت تتراقص ظلال ستار تحرّكها نسمة خفيفة قرب النافذة. أين نمت؟ كانت تصلني من الخارج أصوات جديدة، أصوات بشريّة صادرة من الحلقوم، وصياح طيور فجّ، وهيجان قطط يعلو مواؤها الزّاعق فوق هدير الدّرّاجات الّذي يصمّ الآذان.

أين؟

جاءت ذبابات تدور فوق وسادتي. صائدات، عنيدات، سرب من الجاسوسات يَحُمْنَ فوقي كأنهن لم يرَيْن فرنسيًّا من قبل.

الجزائر... تمنراست... السّفر مع جيرار...

وأطلقت تنهيدة، سعيدًا بالمكوث عند أبواب الصّحراء وأبواب النّهار.

ومع ذلك، كان شيء مّا يربكني. ولكن ما هو؟

عند سماعي لبوق السّيّارة، أدركت ما هو غير مألوف: غياب الصّخب المميّز للمُدُن. لم يكن هناك أيّ زحام يعرقل الشّوارع. لو سمعتُ سيارة لميّزتها بكلّ وضوح كأنّني في الرّيف. عادة، تفرض الفوضى الحضريّة صخبًا أكثر ممّا تفرض الهدوء. أمّا هنا فترتسم الأصوات فوق خلفيّة من الصّمت. تمنراست، تلك الأرض المنبسطة الّتي لم تكن قبل قرن مضى أكثر من نبع ماء لخيام البدو الرّحّل، احتفظت بكرامتها كمدينة نادرة.

والآن، بعد أن عاد الدّم يجري في عروقي، بدأت أعاني من آلام في كاحليّ ويديّ وعنقي. كنت وليمةً للبعوض وهو يتلذّذ بي أثناء اللّيل...

جعلني سباتي أتغاضى عن ضيقي باللّسعات وأغمضت عينيّ، كان الأمرُ ضربًا من الكسل والخمول. السّاعة الآن السّابعة صباحًا! لماذا؟ هناك خطأ ما دون شكّ... كنت منبطحًا على بطني، أزحت رأسي، ثم ساقيّ، ثم ذراعيّ، وكلّها تزن طنًّا. هل سأتوصّل إلى

رفعها؟ كان لكلّ عضو منها حياته المستقلّة. هل ستكون لي الشّجاعة كي أخالفها بأن أحرّكها جميعًا معًا؟

ومن الرّواق، دوّى صوت جيرار المميّز:

- إيريك، لا تنسَ أنّنا ذاهبون لرؤية بائعي المجوهرات هذا الصّباح.

انقطعتُ عن تأمّلي الّذي استغرقت فيه لعقلنة كسلي وانتفضتُ خارج السّرير، وفي الحمّام وجدتُ الصّراصير السّاخطة وقد تراجعت متكتّلة، فوقفت أمام المغسلة واغتسلت بقفّاز الحمّام على طريقة أجدادي ونظري مُسمَّرٌ عليها.

وافيت جيرار في البهو الّذي كان يُستخدم كقاعة طعام. شربت قهوتي وأنا أدهن رغيف الخبز بمربّى تمرٍ لا طعم له سوى السّكّر. آنذاك كان جيرار يمضغ الطّعام ويراجع في الآن ذاته كتبًا مختلفة مخصّصة للمنطقة، وهو ما أتاح لي أن ألاحظ وأنا ألقي نظرة عليها أنّني مازلت في ذلك الوقت لا أحسن القراءة.

ظهر موسى، نشيطًا، جذلًا، أكثر مرحًا من الأمس. وأخذنا إلى سيارة جيب كاكيّة اللون استعارها من صهره، وقدّم لنا العربة بفخر كأنّه يقدّم وليّ أمره. جلست في المقعد الخلفيّ وأنا ما أزال شاردًا، وانطلقنا.

كنت أظنّ أنّ دوار السّفر فارقني مع الطّفولة، لكنّني أدركت أنّني أخطأت. الطّريق غير المستوي، والحفر، وطريقة موسى القاسية في القيادة، كلّ ذلك كان يخضّ أحشائي. وأحسست بمعدتي في فمي.

وبينما كنت أتمنّى النّزول في كلّ لحظة، كان عليّ أن أتشبّث بمقبض باب السّيّارة حتّى لا أرتمي خارجها. ومن فرط الضّجّة والصّدمات خلتُ أنّنا نسير بسرعة مائة كيلومتر في السّاعة، في حين لم نكن قد بلغنا العشرين.

داس موسى المكابح وقد اقتربنا من صفّ أشجار مشوّهة كأنّ نقصًا في النّموّ قد أصابها.

- ها قد وصلنا يا أصدقائي!

لم يكن سوق المجوهرات يُقَارَنُ بساحة الڤاندوم. كان يقع على طرف المدينة، فوق مستطيل من الأرض الممهّدة بين شجيرات دغل صغيرة. نُصِبَت في التّراب خِيام، وسُجّيت السّلع فيها صفوفًا مع أكياس بلاستيكيّة بمثابة علب للحليّ.

لم يكن يحتشد هناك سوى الباعة. أحسست بأنّنا الزّبائن الوحيدون بينهم. والأغرب من هذا أنّ الرّجال كانوا يروحون ويجيئون دون مرافقة أنثويّة. ولئن كانت معظم المجوهرات مخصّصة لهن، فإنّهنّ لم يكنّ يخترنها بأنفسهنّ.

وعرّفنا موسى على تجّار كانوا يحضّرون الشّاي لاستقبالنا، وقد فرشوا الأساور والعقود والتّيجان والخواتم، آملين أن نشتري منهم. لكن كيف السّبيل لنشرح لهم أنّنا مجرّد متفرّجين في جولة استكشاف من أجل فيلم، وأنّنا نكتفي بالنّظر إليها معجبين فحسب. وبعد أن فتننا جمال السّلع، لم يكن من السّهل تبرير القول إنّنا لن نأخذ شيئًا منها! وكان الطّوارق يتباهون ببضائعهم ملحّين صابرين، والضّغط علينا يزداد حدّة. وكي يقنعونا بالشّراء، كانوا يذكّروننا بالسّرور

الّذي ستحدثه هذه الهدايا في نفوس زوجاتنا، وخطيباتنا، وأخواتنا، وأمّهاتنا... وبدأت بالفعل أحسّ ببخس الرّجولة: ألم يكن واجبي يحتّم عليّ استعراضَ قدرتي الرّجوليّة بجلب الحليّ إلى منزلي؟ وعندما ساور موسى الشّكّ في أنّنا غير مكترثين، قادنا نحو الحرفيّين، أفراد الطّبقة الشّعبيّة. كانوا ينحتون خناجر موشّاة. أمّا موسى فقد كانت عيناه تعكسان نفاد الصّبر وهو منشغل البال بحدس رغباتنا، لعلّنا كنّا نرغب في مجوهرات ذكوريّة. وصار الموقف مُحرجًا. فتراجعت جُبنًا منّي، أو ربّما لطفًا، واخترتُ قرطين. أمّا جيرار فقد ساوم على سيف قصير بقبضة مشغولة. وهذا ما طمأن موسى.

- هل أنتما راضيان؟

- نعم.

- مسروران حقًّا؟

- سوف تحدث هذه الأغراض ضجّة في باريس.

- إذن هذا يسعدني أنا أيضًا!

كان قد ارتاب بالباعة وليس بنا...

وعدنا إلى الرّكوب في سيّارة الجيب لندرك موعدَنا الآتي: الكنيسةَ والبرجَ اللّذيْن سكن فيهما شارل دوفوكو.

وبينما كانت الشّمس تكوي أكتافنا، تبادلنا أنا وجيرار نظرة حزينة. شارل دوفوكو... كنّا نرتعش إجلالًا... شارل دوفوكو، الرّجل المقدام الّذي شغل ساعاتنا بالقراءة والعمل والحلم... شارل دوفوكو الّذي نريد أن نعرف عنه كلّ شيء... شارل دوفوكو،

المرابط[1] الأبيض... وها نحن نذهب، بعد قرن من الزمن، لنعاين الأماكن التي عاش فيها هذا البطل لنبني حوله سيناريو الفيلم.

تعتمد الرّحلة الحقيقيّة دائما على المزج بين المتخيّل والواقع، وهي تقع ما بين هذين العالمين. وإذا كان المسافر لا يأمل شيئًا، فهو لن يرى إلّا ما تراه عيناه. وبالمقابل، إذا كان قد تصوّر الأمكنة في تفكيره، فإنّه لن يرى أكثر ممّا يتبدّى أمامه. أمّا إن كان قد تخيّل أماكن الحلم فإنّه سيرى ما مثّله له الحلم، بل سيرى الماضي والآتي وما وراء اللّحظة، وإن اعترته خيبة فإنّها ستنجلي أمامه أغنى من مجرّد كلمة وأكثر جدوى. ورغم الهزّات، رفعت رأسي نحو السّماء، وعرضت وجهي لحرارة النّهار، ورحتُ وأنا مغمض العينين أفكّر مليّا في الأحداث الّتي أوصلتني إلى هنا.

أيّ مغامرة أوصلتني إلى الصّحراء؟

كنت في الثّامنة والعشرين من عمري، أدرّس الفلسفة في جامعة ساڤوا، أستاذا محاضرا شابّا، بدأت مهنة تبدو بوادرها حافلة، فأنا الخرّيج من دار المعلّمين، والأستاذ المبرّز، والدكتور، لو أنّي أصغيت لثرثرات من يكبرني سنّا وهم يُطرونني، لانتهيت في السّوربون، لا بل في كوليج دوفرانس[2].

ومع ذلك، ورغم حبّي للانضباط، كنت أتحدّى هذا الطّريق الذي كان يخطّه لي الآخرون... هل كان طريقي أو النّتيجة المنطقيّة

---

(1) رجل قديس في شمال أفريقيا، عُدّ مقامه رمزَ حماية القرية أو المدينة التي قبر فيها. (المترجمة).

(2) كانت تسمى المدرسة الملكية. تقع في الحي اللاتيني في باريس. وهي أكبر مؤسسات العلوم والأبحاث على المستوى العلمي والأدبي والفني العالي. (المترجمة).

لدراستي؟ هل كان الأمر يتعلّق بحياتي أو بحياة شخص آخر؟

وعلى هذا الدّرب كان الرّجل البالغ يجد نفسه، وليس ذاك الطّفل.

منذ أعوامي الأولى كنت أبدي مواهب إبداعيّة ملحّة، كأن أصنع دمى متحرّكة أو أخطّ قصصا مصوّرة، أو أؤلّف على البيانو مقطوعات موسيقيّة. أو أكتب الحكايات، وأسرق من والدي كاميرته وآلة تصويره، وأكتب المسرحيّات وأعرضها في المدرسة. غير أنّ دراستي وهي تؤهّلني كانت قد شوّهتني. تعلّمت، وتعلّمت كثيرًا. ولم أفعل شيئا سوى التّعلّم. لقد تمّ تحصين ذاكرتي ومعارفي وقدرتي على التّحليل والتّركيب، أمّا المخيّلة وملكة الإبداع والخيال والابتكار العفويّ، فقد تُركت كالأرض البور.

منذ عام وأنا أختنق.

على الرّغم من عملي بإصرار للفوز بالمسابقات وانتزاع الشّهادات، كنت أشعر أنّني رهين هذه النّجاحات.. كانت تطمئنني لكنّها كانت تبعدني عن ذاتي.

عن ذاتي؟

لا! حتّى هذا لا يمكنني تأكيده.

أنا...

من هذا الأنا؟

ماذا كان عليّ أن أفعل على هذه الأرض؟

في غضون ذلك، بدأتُ مسيرة موازية للدّروس التي أقدّمها. وكان نتاج قلمي مسرحيّةً سَلِسَة كتبتها بأريحيّة، عنوانها *«ليل ڤالونيّ»*، وكذلك قصة عطَيل في سلسلة من المحاكاة بأسلوب كتاب مسرحيّين مختلفين. وما إن أرسلت محاولاتي الأدبيّة إلى ممثّلة مشهورة كان لديّ عنوانها، «إيدويج فويّير» حتّى افتُتنت بعملي وأحسنت إليّ، وفتحت لي أبواب العالم المسرحيّ والسمعيّ البصريّ.

وعندما قرأ جيرار ف. المخرج المسرحيّ والسينمائيّ هذه النّصوص، اتّصل بي هاتفيًا.

- هل أنت مهتمّ بفيلم حول فوكو؟
- أيّ واحد؟ المفكّر أم الكاهن؟
- من تفضّل؟
- أنا مهتمّ بالاثنين، ميشيل بقدر شارل.
- ومع ذلك، لا علاقة لأحدهما بالآخر.

كان جيرار على حقّ فعلًا! ميشيل فوكو، شارل دو فوكو... كان الأول عصريًا، والثّاني لا، الأوّل كان فيلسوفا، والثّاني صوفيًا، كان الأوّل ملحدًا، والثّاني كان متحوّلا إلى الإيمان. ناضل الأوّل لصالح حقوق المثليّين، والآخر، وبعد العديد من العلاقات النّسائيّة، نذر نفسه للعفّة. لم يكن من الممكن إخراج كلّ منهما إلى الملأ بشكل فرديّ، وقبل ذلك، هما على طرفي نقيض. لكن كانت تجمعهما نقطة واحدة: الاثنان فقدا حياتهما في ظروف قاسية. ميشيل فوكو دمّره ڤيروس السّيدا، وشارل دو فوكو، اغتاله أحد المقرّبين.

اعترفتُ لجيرار بأنّ الشّخصين يستحوذان على إعجابي إذ يقدّم لي كلّ منهما الكثير كي أتأمّله. وانتهى جيرار بأن قال لي:

- أحدثك هنا عن شارل دو فوكو.

- لماذا تريد أن تُخرج فيلمًا عنه؟

ودون أن أنتبه إلى جرأتي، كنت قد قلبتُ الأدوار وشرعتُ أسأله.

شرح لي جيرار بطريقة شاعريّة انفعاليّة، وأصيلة غامضة، تعلّقه بشارل دو فوكو المحارب القديم في فرنسا الاستعماريّة، المحارب الّذي رحل إلى الجزائر ما إن مسّته النعمة، لا لكي يغزو، ولا لكي يبشّر بالدّين المسيحيّ، إنّما لكي يعيش بالقرب من الطّوارق ويزوّدنا بأشعارهم وأساطيرهم وقوانينهم، وكذلك بأوّل قاموس للغتهم.

التقينا في الغد، وتحدّثنا مطوّلا عن الرّاهب فوكو. وفي المساء، اتّصل جيرار بوكيله وحصلتُ على عقد السّيناريو، أنا الّذي لم يسبق لي أن كتبت سطرا واحدا للسّينما أو للتّلفزيون.

لهذا، ها نحن اليوم نجوب الصحراء، جيرار وأنا، بعد ستّة أشهر من التّوثيق والنّقاش والكتابة.

يا لها من مفارقة!

فنّانان يسيران على خُطى روحانيّ! باريسيّان يسعيان إلى أن يفهما كيف استطاع وريث ثريّ متكبّر أن ينذر نفسه للفقر، ويحبّ قريبه بلا توقّف، ثمّ يلتحق بالطّوارق، بذاك الشّعب المخيف في ذلك الزّمن، الشّعب المجهول، الهائم على وجهه، السّرّيّ، الّذي لا يمكن إدراكه.

لم نكن، لا جيرار ولا أنا ننتمي إلى إحدى الكنائس، وإذا كنّا نتبع أثر فوكو في قلب الصّحراء، فقد كان هذا شغفًا بوجه إنسانيّ، هو وجه حكيم كونيّ، حكيم لا يفرض علينا أن نكون مسيحيّين كي يلهمنا، حكيم يسهل التّعرّف إليه، وقد عرف كلّ فرد وكلّ حضارة.

وقفت السيارة أمام الفرقاطة[1].

كان هناك كلب شارد النّظرة يبول إزاء نخلة، ودجاجات يقوقئن، وصبيّان يتسكّعان، توقّفا عن الحركة جاهدَيْن لمعرفة ما كنّا نمعن النّظر فيه بكلّ هذا الاهتمام ونحن مستندان إلى سيّارة الجيب.

كانا على حقّ... ما الّذي كان أمامنا؟ مبنى من الحجر المتلاصق بشكلٍ سيِّءٍ، طوله ستّة أمتار، وعرضه متر وخمسة وسبعون، سقفه من أغصان الأشجار، يرتفع بقامة رجل. وعلى مقربة منه في المدينة، تصطفّ مئات المباني المتّسعة، وقد بنيت على نحو أفضل.

غير أنّ هذا المستطيل المبنيّ بشكل أخرق، كان أوّل بيت في تمنراست، في العام 1905، في هذه الواحة حيث لم تكن تجد سوى عشرين «نارا» كما كان يقال في الماضي، أو عشرين كوخا من القصب. اختار شارل دو فوكو المكان لأنّه بدا له مهملًا قد تناسته حضارة الاستعمار الفرنسيّ، وكان يتمنّى، فضلًا عن ذلك، أن يبقى هكذا. كان مقتنعا بأنّهم لن يقيموا فيه أيّ بعثة، أو أيّ ثكنة، أو أيّ تلغراف، لهذا نذر نفسه للسّكّان الأصليّين، على طريقته المثاليّة.

ومن أجل حبّ الله، بنى ما يسمّى الفرقاطة، وهي نصف كنيسة،

---

(1) اسم الصومعة التي بناها شارل دو فوكو. (المترجمة).

ونصف مَوهف[1]. وعلى الجانب، بنى كوخًا من القشّ يُستخدم للنّوم والطّعام والطّبخ واستقبال الضّيوف، لكنّه اختفى كُلّيًّا.

تمنراست، القرية القديمة ذات الأربعين نسمة، تعداد سكانها اليوم مائة ألف، الشّاحناتُ فيها تُزاحم الجِمال، وتغطّي الأرضَ شوارعُ عريضة مفروشة بالقطران، وأكياس بلاستيكيّة تتدحرج حول أشواك البعير الجافّة، وتنطلق في الصّحراء، ونوافيرها المنحوتة تدفع المياه الثّمينة نحو السماء. لقد أخطأ شارل دو فوكو، لكنّني كنت أحاول أن أرى الواقع بعينيه، بعيني شخص في العام 1905، يعتزم بناءَ بيتٍ حقيرٍ وسَط سهلٍ من التُّراب الممهّد.

وختم جيرار القول:

- نعيد بناءه!

- عفوًا؟

- أعني الدّيكور. من أجل الفيلم...

تلك هي قدرات المخيّلة: إذا كنتُ أرى الماضي، فإنّ جيرار يرى المستقبل، إنّه يرى تصوير فيلمه الطّويل...

وذهبنا إلى البرج.

اشتدّت حرارة الجوّ. ولطّخت بقع العرق قميصي، تحت إبطيّ وخاصرتي وفوق معدتي، كان بنطالي يضغط على فخذيّ ويحرق ما بين ساقيّ. لم يكن جيرار يحتمل المناخ هو الآخر بسهولة، تحوّل لون بشرته إلى الأحمر القاني. خمّنت أنّ ملابسنا غير ملائمة، وبدأت أحسد

---

(1) غرفة صغيرة إلى جانب مذبح الكنيسة لتغيير ملابس الكاهن. (المترجمة).

الرّجال المرتدين الجلباب الّذين كنّا نصادفهم. كانوا أحرارَ الحركة، أقلّ انزعاجا من الحرارة، غير مقيّدين تحت هذه الملابس المُعذِّبة لكُلِّ جزءٍ من الجسم. كانوا يتجوّلون، أحرارًا، نظيفين، يا لها من نعمة تستحيل عليّ، أنا المتصبّب عرَقًا، والغبار عالق بجلدي. كيف لهم أن يظلّوا هكذا؟ حتّى أقدامهم داخل صنادلهم المفتوحة، تبقى سليمة! كيف ونحن الأوروبّيّين تميّزنا عقدة التّفوّق؟..

كان البرج ينتصب مهيبًا. حصن صغير بلون الصّلصال الأحمر الدّمويّ، بناء مُصمّت، منغلق بلا نوافذ، يعلوه سور متناوب الفتحات يشهد على عنف العالم. لم يتمكّن شارل دو فوكو من تحقيق مثله الأعلى في حياة بسيطة، توجّب عليه تشييد هذه القلعة كي يحمي القرويّين من عصابات اللّصوص الآتين من أماكن أخرى. هل غلبه العقل؟ لا، إنّها القوّة، القوّة الغبيّة، والجشعة الضّارية الّتي تريد امتلاك أملاك الآخرين وتستخفّ بحياتهم.

كان البرج يذكّر بالفشل المصحوب بمأساة. هنا، في العام 1916، لقي شارل دو فوكو حتفه برصاصة في الرّأس أطلقها صبيّ يعرفه، وكان قد ساعده. في الحقيقة، وإن كان هذا الصّرح الشّامخ عظيمًا، فإنّه لم يكن يروي إلّا قصّةً واحدة: قصّة الصّراع بين البشر.

تعجّب جيرار:

- هل هذا معقول؟

- ماذا؟

- يكفي أن أسدّد الكاميرا بشكل صحيح وسأمحو بعض

التّفاصيل... وهذا عين الصّواب!

كان جيرار يحب النّهايات المؤثّرة -نهاية فيلمه ونهاية فوكو، صفحات وصفحات، طلب منّي كتابتها مرارًا وتكرارًا كي تكون الحبكةُ علامةً فارقة. أمّا أنا، فليست التّفاصيل ما كنت أودّ محوه، إنّما الحدث الرئيسي... الموت الظّالم لشخص عادل.

- أعرف ما يجول في خاطرك... قال وهو يخرج قشّة سِواك.

- أحسنت، لأنّني أجهل ذلك...

- أنت تفكّر في مصير فوكو، كنت تودّ لو أن الحبّ غيّر العالم.

- ألا تفكّر هكذا أنت أيضًا؟ ما رأيك؟

أدخل قشّة السّواك إلى طرف فمه ونظر إلى الحائط السّميك الّذي كان يحمي مدخل البرج.

- أنا مثلك، أتمنّى ما تتمنّاه، أن تنتصر المشاعر الخيّرة، لكنّني أقبل كذلك استحالة تطبيق ذلك في الواقع.

- هل أنت مصمّم على الفشل الذّريع؟

- أنا مصمّم على النّضال المستمرّ. في رأيي، يكمن النّصر في الصّراع، وليس في ما ينتج عنه، ودون أن أفقد هدفي، أفقد التّوهّم بالانتصار.

- كم أودّ أن أفكّر هكذا.

- ليس في وسعك التّفكير هكذا وأنت في الثّامنة والعشرين! وهو خلاف ما تعتقد بعد أن تتجاوز الخمسين... إنّ ما يشكّل روعة الصّراع لا نصره ولا هزيمته، بل سببه وغايته.

سكتّ كي أخفي فرط انزعاجي من استسلامه. أيّ مستقبل كان يعدني به؟ هل هو مستقبل التّمرّد المعتدل؟

وأشار إلينا موسى:

- قاربت الساعة العاشرة ، يجب موافاة البعثة.

وهمهم جيرار. لم يكن يرغب سوى في إكمال الرّحلة برفقتي، لكنّ الواقع أملى شروطه. سُجِّلَ عشرة أشخاص في باريس في وكالة رحلات اختصاصيّة، وسيشاركوننا هذه الجولة. وبعد أن لُذْنا بنفسَيْنا إثر وصولنا المبكّر أمس، ها نحن نضطرّ إلى الاندماج في مجموعة ستقاسمنا لحظاتنا هناك.

أخَذَنا موسى إلى فندق *Hôtel* حيث استعدنا حقائبنا. ووخز قلبي وجع الحنين إلى غرفة ما كنت قد أحببتها قبل تلك اللّحظة. عندما أغلقت الباب، انقبض قلبي. وهأنذا، أترك معالمي، العالمَ المبنيّ، العالمَ المتمدّن، والأسرّة الصّلبة، وغرفَ الحمّام بمياهها الجارية ومراحيضها المنعزلة، عالمَ الخصوصيّة والحرّيّة. ولعشرة أيّام، سأنتمي إلى قطيع، سأمشي دون استراحة، وآكل في الهواء الطّلق، وأتبرّز فوق التّراب، وأغتسل بشحّ، وأنام تحت النّجوم مُعرَّضًا للعقارب والزّواحف ومخاطر أخرى، مثل بدويّ.

بدويّ؟ أنا؟

جمّدتني رعشة خوف وخارت ساقاي.

بدويّ... هل سأتمكّن من تحمّل ذلك؟

(3)

نادى الدّليل أسماء أفراد الرّحلة العشرة: «بول، آن، مارك، مارتن، توماس، جان بيير، سيغولين، دانييل، جيرار، إيريك-إيمانويل».

وعندما قفز ذلك الدّليل فوق صخرة كي يخطب فينا، بقيت فاغر الفاه. اجتزت آلاف الكيلومترات وانفصلت عن الحضارة، ثمّ توغّلت في جنوب الجزائر كي أجدَ نفسي أمام رجل أميركيّ في الثّلاثين، اسمه دونالد، شعره طويل مجعّد وباهت، يمضغ لغتنا في الوقت نفسه الّذي يمضغ فيه العلكة، يا لها من صدمة! اسمه، وجنسيّته، وجسمه الشّبيه بجسم راكب أمواج... كلّ هذا بدا زائفًا..

- أنا قائدكم، عليكم طاعتي. وإلّا...

وأشار إلى جمجمة عنزة ملقاة وسط بقعة من العشب.

- سينتهي بكم المطاف هكذا.

وضحك وهو ينظر إلى العظام.

كان دونالد يبدو لطيفًا، غير أنّه لطف على الطّريقة المهنيّة، مسكون بمرح مصطنع، يوزّع الغمزات اللّامعة بشكل متواصل، ويطلق طرفات مضحكة، ولكنّها لم تكن مجدية لإزالة شكّي في

حقيقة ما يجري.

وغمغم جيرار متهكّما:

- من الصّعب أن يكون المرء ممثّلاً لإرضاء نزعة خاصّة دون سواها.

كان دونالد متحمّسًا بقدر ما كان مثابرًا، يتظاهر بارتجال استعراضات مملّة.

وبعد عبارات التّرحيب، راح يتلو علينا تعليمات الأمان. لم أكن أصغي إليه، آثرتُ التّحديق في وجوه الآخرين وهم يسمعونه. كانت أعمار رفاقي الثّمانية مابين الأربعين والسّتيّن عاما، يرتدون الملابس الرياضيّة الخالية من المباهاة، وبشرتهم الشّاحبة الضّاربة إلى الرّمادي تذكّر بأنّهم تركوا الشّتاء الفرنسيّ -كانت بداية شهر فبراير-، وكان ضرب من الاستسلام الأبله يرتسم على وجوههم ويشهد بأنّهم، وقد خرجوا للتّوّ من الطّائرة، مازالوا يخالون أنفسهم في مرحلة عبور.

بعد انتهاء دونالد من إلقاء القواعد التي تتلخّص في «سيروا على خطاي» و«ابقوا متجمّعين»، وصف لنا طريق المسير. كنت أصغي إليه أقلّ فأقلّ. عندما أخضعُ لبرنامج زمنيّ دقيق يراودني شعور بأنّني دخلت في الأسر، كأنّني أمام ورقة امتحان، لا أفعل شيئا سوى ملء الفراغات أو إثبات صحّة الرّسم، لا أعود حيًّا، وأسوأ من ذلك إذا قيل لي كيف ستنتهي الرحلة، فقد أتخلّى عنها.

واليوم وبالعودة إلى الوراء، آسَفُ لعدم إلقائي بالًا لتعليمات دونالد. وبعد الرّحلة سيثبت إلى أي حدّ كان على صواب وكم كنت

على خطأ... وهي تجربة كانت ستكلّفني حياتي... ولكن دعونا لا نستبق الحكاية.

بينما كان يعدّد مراحل الرّحلة، رحت أتأمّل عشب السّاڤانا في الجوار. على بعد ثمانين كيلومترًا من تمنراست، هنا حيث أنزلتنا سيّارات الجيب، توزّعت كتل حجريّة كلّ خمسة أمتار أو عشرة، مُشكِّلةً حظيرةً برّيّة تثقبها مداخل مفتوحة على الأفق، تمرّ فيها جِمال ترعى بين الأعشاب الفضّية.

يا لها من حيوانات غريبة... عندما اكتشفتها في حديقة الحيوانات في طفولتي، شبّهتها بحيوانات مقعدة مقارنة بالخيول والحمير، إذ تجتمع فيها كلّ التّشوّهات: هي هزيلة وبدينة في الوقت ذاته -لها قوائم نحيلة وظهر مشحّم- تبدو يافعة وكهلة بتجاعيدها، مشعّرة وصلعاء، يقتصر فراؤها عند الصّدر والظّهر، ليس لعنقها قوّة ولا شكل كأنّ فأسًا فصلت الصّدر الواسع عن العنق الملتوية إلى الوراء، تنتفخ سيقانها القويّة عند ركب قويّة لتنتهي بأقدام مسطّحة عريضة. وأخيرًا، ورغم كونها عملاقة، إلاّ أنها تحمل رأسًا منمنمًا، مسطّحًا، قبيحًا، ذاهلًا، مزوّدًا بمشافر غليظة ومنخريْن واسعيْن تحت محجريْن بارزيْن يستقرّ فيهما بؤبؤان نظرتهما كئيبة، يا له من رأس مشوّه مثل ذاك الّذي تلتقطه العدسات القريبة من الوجوه، وحتّى من مسافة بعيدة، للجِمال دائما خِلقةٌ عجيبة كأنّها صورةٌ قد التُقطتْ من مسافةٍ قريبةٍ جدًّا، والتصقت بها الكاميرا.

لكن هنا في موطنها الأصليّ بإفريقيا أعطتني الجِمال انطباعًا

مختلفًا. أراها رزينة، هادئة حرّة، تتمتع برشاقة مستهترة، تجوب مراتع الكلأ بخطى واسعة ومشية واثقة. وحين يرتاح بعضها تحت أشجار الأكاسيا، يقطف بعضها الآخر شوك الجمل، ويقضم رؤوس الأدغال، ويمدّ خطمه إلى الأوراق. وبكلّ احتراز، كانت تكتفي بزهرة من هنا وورقة من هناك، وتحترم حياة النّباتات كي تحافظ على النّوع. كانت تكتفي بصمتها وحركاتها شبه السّاكنة، وتبدو عملاقة بين الشّجيرات الصّغيرة، موسومة بهدوء النبات، تذكّرنا أهدابها الطّويلة بمدقّات الأزهار وسُداها، وتحجب من ورائها نظرة في غاية الوداعة.

وصل على حين غرة خمسة رجال جزائريّين، ظهروا من حيث لا أدري، وحاولوا الإمساك بالدّوابّ الّتي راحت ترغي من وقع المباغتة.

وثبتُ مصدومًا باتّجاه دونالد. وقبل أن أتفوّه بكلمة بذيئة شرح لي الموقف:

- سيأخذ أصدقاؤنا ثلاثة جِمال، يضعون عليها البردعة ويعهدون إليها بطعامنا للأيّام العشرة القادمة. نحن بحاجة إليها، فلن نجد متاجر التّموين في الطّريق.

- بالتّأكيد...

- لا تفزعوا، الحيوانات معتادة، وستكون على ما يرام.

وفي الواقع، كانت الجمال تقاوم بعض المقاومة، ثمّ ابتعدت على مهل خانعة وتقبّلت الحبل الّذي كان يقيّدها. غير أنّ جملاً واحدًا

فقط، عملاقًا عدوانيًّا أصهبَ، ثارت ثائرته، وخبط الحمولة وهو يبصق مُكشِّرًا عن أسنانه.

- لنترك هذا، إنّه في حالة هيجان.

كان الذّكر ينقضّ، ويرتدّ إلى الوراء حائرًا، متبجّحًا تارةً ورعديدًا تارةً أخرى.

أعرض الرّجال الثّلاثة عن التّصدّي له، وأخذوا إلى جانب سيّارات الجيب ثلاثة جِمال مثاليّة بحدبات رائعة وأقدام في حالة ممتازة وأمروا بإناختها.

كان الأوّل بلون الكراميل، بدأ يثني قائمتيه الخلفيّتين، وما كاد يركع حتى جُنّ جنونه فجأةً، وجعل يزعق وقد فقد السّيطرة على حركاته، كان المروّض يواظب على عمله إلى أن بدأ القسم الخلفي من جسم الجمل يتأرجح، وأخيرًا حطّ رضفتيه على الأرض ليصبح قفاه ووزره على المستوى الأفقيّ نفسه، وبزفرة واحدة، بسطت الدّابّة فوق الرّمال الوسادةَ الصّغيرةَ الّتي كانت تحيط ببطنها. أمّا الآخرَان فلم يستمرّا بحركاتهما أكثر منه، إذ كان هناك على الدّوام ذاك التّناوب ما بين الهياج والاعتدال، كأنّ مفاصلهما المضطرمة غضبًا كانت ترفض القيام بوظائفها.

- *تغلاساد!*

رحّب بنا رجل يغطّيه اللّباس الأزرق وقد لاحت ابتسامة مشرقة على شفتيه.

- *أويوان!*

وافتتح مناجاةً حماسيّةً، ورغم أنهّ كان يدرك أنّ أيّا من الفرنسيّين لم يكن يفهمه، فقد كان يتكلّم باقتناع، طلق اللّسان، يتقدّ وجهه وعيناه حماسًا. وعلى نحو غريب، كان كلّما أطال في إلقاء عباراتٍ عصيّةٍ على الفهم، يزيد في إقناعنا. وكان إصراره على التّواصل معنا يدلّ على الاحترام الّذي يكنّه لنا. وفي حين كان علينا أن ندفعه إلى التّوقّف كنّا نشجّعه على المواصلة بالإصغاء إليه، مراعاةً منّا لاهتمامه بنا.

وعندما سكت الرجل، لعب دونالد دور الوسيط.

- إنّ أبايغور مرشدنا من الطّوارق، رجل من جبال الهقّار[1]، سليل عائلة أرستقراطيّة تجوب الصّحراء منذ قرون. أُلفت نظركم إلى أنّه لا يتكلّم كلمةً إنكليزية واحدة، ولا فرنسيّة ولا إيطاليّة ولا ألمانيّة ولا إسبانيّة. ومع ذلك، ستتمكّنون من التّحدّث معه.

- بأيّ طريقة؟

وعبّر أبايغور عن موافقته على ما سمع:

- في الصّحراء، يتمّ التّفاهم دون كلام، سترون...

- *الخير غاس*.

وقال دونالد:

- على كل حال، أعرف مبادئ لغة التماشق[2].

وأحسست على الفور بأنّي صُعقت...

---

(1) سلسلة جبال ترتفع 2918م في جنوب صحراء الجزائر تغطي مساحة 50000 كم^2.

(2) لغة الطوارق ولها ثلاث لهجات: تماشق، تماجق، تماهق. وهي لغة أمازيغية حافظت على جذورها. (المترجمة).

كان أبايغور جميلاً، ممشوقَ القدّ، يرتدي الكتّان الأزرق النّيلي على نحو رائع، تلفّ رأسَهُ عمامةٌ بيضاء. كأنّ يدًا رسمت ملامحه بدقّة وأناقة تحت إلهام الطبيعة، له وجه صقر من الجانب، شفاه بارزة، وبؤبؤان ثاقبان في بشرة بلون أسمر لفحتها الشّمس. وبهيئة ملكيّة، وقف وسط فريقنا غير خجل من لفت انتباهنا.

واعتمر قلبي سرورًا.

لا أتحدّث هنا عن حبّ من أوّل نظرة، ولا عن تعلّق بصديق من أوّل لقاء، ولكن عن صعقة... كيف أقول...رجّة إنسانيّة. عشقت في الحال الحضارة الّتي كان هذا الرّجل يجسّدها، عشقت التّاريخ الّذي كانت تحكي عنه مهابته، هدوءه السّافر، والابتسامة الّتي كان يتحفنا بها، تلك الابتسامة الموسومة بالتّرحيب والسّكينة والجلال، عشقتُ تلك البسمة الواعدة بلحظات آسرة.

وسألتُ دونالد:

-كم سنّه؟

فبسبب هالة القدم الّتي كانت تلفّه، لم أتمكن من تحديد عمره، هل كان في الخامسة والعشرين أو في الخامسة والأربعين؟

نقل الأميركي سؤالي إلى أبايغور. وليردّ عليه، التفت ناحيتي وقد اتّقدت عيناه، ثم أرسل إليّ إشارة ودّية كان يعني بها: «شكرًا على الاهتمام بي». وبعد ذلك جثا يشدّ وثاق السّروج والمؤن.

- ما الحكاية؟ ألا يتحدّث الطّوارق عن أعمارهم؟

أجاب دونالد: - أبدًا.

- لماذا؟

- إمّا لأنّهم يعتقدون أن لا أهميّة للأمر، أو لأنّهم يجهلون تاريخ ميلادهم. لكلا السّببين على الأغلب... وعمومًا، حياتُهم غير مثقلة بالأرقام.

اتجهتُ صوب أبناء بلدي كي أتعرّف إليهم أكثر. كان جيرار يستنشق الهواء منعزلاً، لا شكّ في أنّه غير اجتماعيّ.

كان الفريق قلقا وبدا التّوتّر على مختلف الحاضرين.

قالت مارتين أستاذة الرّياضيّات:

- أنا خائفة..لا يخرج المرء من الصّحراء سالما.

وأضاف زوجها مارك وقد تغضّن جبينه:

- هذا مؤكّد! وإن عدت منها فإنّك ترجع منشرحًا أو مُحبطًا، هذا ما لاحظناه من أصدقائنا.

وردّدت مارتين:

- رحلة كهذه تشكّل دائما تجربة عظيمة، إنّها تخيفني، فبعد عشرة أيّام لن نكون كما نحن الآن.

وغمغم مارك وهو يفرك رقبته:

- لن نعود كما نحن الآن، ولكن كيف سنكون؟ في أيّ حظّ سنقع، هل في الجانب الجيّد أم في الجانب السّيّئ؟

أردتُ استفزازه والصراخ في وجهه إنّه سيخرج حاملا لوحة الوصايا العشر، لكنّي التزمت حذري، واكتفيتُ بالتّمتمة:

- ما أخشاه هو ألاّ نتغيّر.

وأومأت مارتين بالموافقة وقد زمّت شفتيها والدّموع تكاد تفرّ من بين أجفانها، وهي ترتجف من التّفكير في المحن الّتي كانت تنتظرنا.

وقالت سيغولين طبيبة العيون في بوردو:

- بالنسبة إليّ، ما يرعبني هو العزلة، لن تكون هناك قطارات ولا هواتف، ولا شيء. تصوّروا لو أنّ أحدنا يُصاب بجرح، فكم يلزم من الوقت ومن مئات الكيلومترات لنجد مستشفى حقيقيًّا؟

- إنّ مرشدنا يحمل جعبة الإسعاف للحالات الطّارئة.

- آه صحيح؟ هل هو طبيب؟ وإن هاجمتنا العقارب؟

وصاح مارك:

-في هذه الحال، لا حاجة إلى العيادة ولا إلى الصّيدلية، فسمُّها يسبّب الموت الفوريّ.

ووجم جميعهم. وترسّخ الخوف وصار هو الجامع بينهم.

تراجعتُ خطوةً إلى الوراء راغبًا في الهروب من هذا الجوّ المزعج. وفي واقع الأمر، كنت خائفًا من خوفهم، كنّا نتقاسم الخوف نفسه، كان خوفهم خوفي...

على بعد بضعة أمتار منّي كان جيرار مستغرقًا في مضغ عود أسنانه، وأومأ إليّ برأسه وأشار برمشة من جفنيه إلى أنّه قد شهد على الحديث. وقال مقطّبا: «هل فهمت الآن لماذا أنفصل عن القطيع؟».

وأثناء ذلك، كان الرّجال الجزائريّون يعلّقون بسيور من الجلد

الصّناديقَ المعدنيّة وقِرَبَ الماء وأكياسَ الحبوب فوق ظهور الدّواب، ويثبّتون حزمة ليلحقوا بها الأخرى على الفور. اللّعنة! أيّ جنون هذا! كيف ستحتمل هذه المخلوقات المسكينة كلّ هذه الأحمال؟ غير أن الجِمال نهضتْ في ثلاثِ ثوان، ردًّا على إيعاز الرّجال. ورغم ثقل الحمولة، بدا الوقوف أقلّ صخبًا من الجلوس. يا لها من خفّة عجيبة! بدت لي الجِمال في تلك اللّحظة كائنات هوائيّة أكثر منها أرضيّة.

وقفز الجزائريّون نحو سيّارات الجيب إلى جانب سائقينا، ولوّح الجميع بأيديهم مودّعين. ودوّت أصوات أبواق السّيّارات المنطلقة. كنت أتابعها تشقّ طريقها في البعيد داخل الغبار الّذي كان يتبدّد مع هدير المحرّكات.

وفي أعلى إحدى التلال، كان أبايغور يتأمّل اللاّمتناهي. وانعكس في حدقتيه خطّ الأفق مقسومًا إلى اثنين، نصف من السّماء الشاحبة، ونصف من الأرض القاتمة. لم يكن في وسعي أن أكشف أيّ مشاعر كانت تعتمل وراء هذا البريق في عينيه. كان يقف مستقيما، لا يُسبَر غوره، ساكنًا خالدًا سُكُونَ العَالَمِ وخُلُودَهُ.

حلّ الصّمت ثقيلًا وكثيفًا. ها نحن وحيدون في قلب الصّحراء لعشرة أيّام قادمة.

ولا مفرّ.

والمغامرة على وشك أن تبدأ.

ماذا عساها ستشبه؟ هل ستكون رحيلاً في العذاب أم سفَرًا في اللّذّة الآسرة؟

(4)

«في مكانٍ ما، ينتظرني وجهي الحقيقيّ».

كنت أمشي خافضَ العنق، مشنّجَ الرّبلتين والذّراعين، سّبابتيّ محشورةٌ في حزامي، ونظري مُثبتٌ فوق حصى الأرض غير المستوية لأتفادى السّقوط، تُثْقِلُ عليّ حقيبتي بقدر ما كانت تفقدني توازني وسرعان ما بدأ كاحلاي يتزعزعان.

«في مكان ما، ينتظرني وجهي الحقيقيّ».

كانت هذه الفكرة ترافقني في طريقي، تلازمني، تنظّم إيقاع خطواتي. بعد الغداء الّذي ازدردناه على عجل، رحنا نطوف في درب متعرّج وسَط جلاميد ساكنة وصخورٍ منتصبة شامخة نحو السّماء. ورغم التواء الدّرب، بقي محافظا على حالته الطّبيعية، منسجمًا مع التّضاريس، محوّلًا المداخل الطّبيعيّة إلى ممرّات بعد أن مهّدتها قرونٌ من الاستخدام.

أعلن دونالد عند انطلاق الرّحلة:

- أبواب الصّحراء!

وأشار إلى مرتفع تتناثر عليه الصّخور، ففكّرتُ في الحال أنّنا ما إن نجتاز هذا العائق، حتّى ننفذ إلى أرض مستوية. ولكن لا! كان الجدار الصّخريّ يخفي جدارًا آخر، ثمّ يليه واحد جديد وهكذا...

كنّا نعبر سلسلة من المرتفعات لم نصل إلى آخرها إلاّ بعد عدّة ساعات. وبكلّ انتباه وتيقّظ، عدّلت سرعتي كي أضبطها على إيقاع سير المجموعة. ساد المكانَ ضربٌ من الطّواف المنظّم: كان أبايغور والجِمال في المقدّمة، أمّا دونالد فيختم نهاية الموكب.

«في مكان ما، ينتظرني وجهي الحقيقيّ».

كيف اقتحَمتْ هذه الجملة عقلي؟

أثناء وجبة الطعام السّريعة، سألت سيغولين إن كان لدى أحدهم مرآة.

وردّت النساء:

- لسنا هنا كي نتبرّج.

وأضاف الرّجال:

-لا نفكّر في الحلاقة.

واندهش الجميع، لم يكن أحد يحمل هذا الغرض.

وختمت سيغولين:

- لن يرى أحد منّا وجهه لعشرة أيّام! وكانت هذه الفكرة تزعجها، أمّا أنا فقد سحرتني.

لطالما كانت علاقتي بالمرايا معقّدة. وإن كنت في طفولتي أجهلها، فإنّني في المراهقة قد تَثَبَّتُّ أمامها طويلاً. وكم من الأيّام كرّستُ في سبيل فكّ ألغازي! لم تكن في الأمر نرجسيّة بقدر ما كان قَلَقًا. لم أكن أفهم... كنت أبحث دون جدوى عن العلاقة بين هذا الشّخص وبيني، كان جذعه ينمو وكتفاه وساقاه، أمّا أنا فلم أتغيّر في

داخلي، ولم يكن تبدّله يتّخذه خطّة مواربة ملتوية فحسب، وإنّما كان هذا التّحوّل مستمرًّا دون أيّ رغبة منّي ولا سيطرة عليه لأقاومه، ودون حتّى أن أستبقه. إلى أين سيستمرّ هذا؟ أين سيمضي؟ كنت أعدّ نفسي ضحيّة قدر محتوم، هو قدر النّموّ والكبر. أيّ رابط بين هذا الجسد الذي يتّخذ شكل الرّجل وبيني؟ إنّ الطّفل الّذي كان يختبئ في انعكاس صورتي قد بقي في داخلي، بل أكثر من ذلك، بقي أنا.

وما إن انتهى النّموّ، حتّى رضيت دون أيّ حماس بفكرة قضاء حياتي داخل هذا الجسم الضّخم ذي العضلات الرّياضيّة المفتولة، هذا الجسم الّذي تعلوه ملامح مستديرة. ومع ذلك، كنت أرغب في منح نفسي شكلاً آخر، شكلاً مختلفا، يكون نحيلًا. ولو تيسّر لي أن أختار جسدًا لاخترته هزيلاً، مثل مخاوفي وتساؤلاتي.

في سن الثّامنة عشرة، قطعت كل صلة بالمرايا، إلّا في وقت الحلاقة. وعندما كانت صورتي تنعكس في مرآةٍ على نحو مباغت، في زاويةِ شارع أو داخلَ مطعمٍ، كنت أُصاب بالدّهشة. كم كنت أراها غير متناسقة! لم أكن أجد ما به أشبّه نفسي...

لم أكن أُسرّ بهذا الإحساس بانعدام التّناسق إلى أيّ واحدٍ من المقرّبين، ففي المرّة الوحيدة الّتي جازفت فيها بالكلام وعبّرت فيها عمّا أفكّر، ردّت الفتاة الشّابّة: «ألا تحبّ نفسك؟ لا يهمّ، فأنا أحبّك وأراك وسيما». المسكينة، أيّ غيّ هذا؟... لم أكن أعاني من ذلك، وسيم أو غير وسيم، لم أكن آبه للأمر بل كنت أهزأ به! أحبّ نفسي، أو لا أحبّها، أيّ أهمية لذلك؟، كنت أذكر لها ألمًا داخليًّا قديمًا متأصّلًا دفينًا. لم أكن أعرف نفسي! وفي منزلي، لا توجد أيّ مرآة كبيرة

متحرّكة ولا أيّ مرآة لها قاعدة، يوجد فقط مربّع زجاجيّ صغير في الحمّام الخالي من النّوافذ.

«في مكان ما، ينتظرني وجهي الحقيقيّ».

استولت هذه العبارة على ذهني في البداية بعد الظّهر، ثمّ عاودتني من جديد، وجعلها المسير ملحاحًا، تدور وتدور وتدور...

ماذا كانت تعني؟

أظن أنها كانت تعرض أشجاني: أبحث منذ عام خلا عن مكاني في الحياة، عن وظيفتي ومهنتي. وهذه العزلة في الصّحراء ستسمح لي بأن أحرز تقدّمًا. هل كان يجدر بي الاستمرار في تأمّلي الفلسفيّ وتفكيري في اضطرابات تحوّلاتي الجسدية؟ وأيّ منها؟ أو هل كان حريًّا بي أن أعطي الأولويّة للتّعليم؟ هل كان عليّ أن أكرّس نفسي للكتابة؟ باختصار، هل كنت علّامة أم مفكّرا أم أستاذًا أم فنّانًا؟ أو شيئًا آخر ربّما؟ شيئًا آخر أو... لا شيء؟ ربّما لا شيء... في هذا الرّكود، ألا يجدر بي أن أسارع لأؤسّس عائلة وأرزق بأولاد، ثمّ أكرّس نفسي لتعليمهم ولسعادتهم؟ كان هذا الارتباك يحزنني، إذ كنت على مفترق طريقي إلى نفسي وليس على طريقي الثّابت.

«في مكان ما، ينتظرني وجهي الحقيقيّ».

اليوم وأنا أكتب هذه الفقرة، أرى السّؤال بوضوح أكثر، إذ أنّني حصلت على الإجابة بعد ثلاثة أيّام من تأمّلاتي تلك... وبطريقة تقلب الكيان. لكن دعونا لا نسرع في الحكاية.

- أُنظر، نبات الأرطماسيا[1].

أشار توماس إلى بُقعٍ بلونٍ أزرقَ مُخضرٍّ تتناثر فوق الأرض هنا وهناك.

قلت وأنا أقطف غصنًا تغطّيه مائة ورقة فضّيّة:

- إنّه يشبه الزّعتر.

- تنشّقها!

وميّزتُ رائحة زكيّة لاذعة بعض الشّيء.

وفي تلك اللّحظة لمحني أبايغور من أعلى، وصاح:

- *تيباراغاليه*!

وأبديت له عدم فهمي، فكرّر صبورًا:

- *تيباراغاليه*!

تمتمتُ بين أسناني أسأل توماس:

- ماذا يقول؟ يجب ألّا ألمسها؟ هل هي سامّة؟

فهزّ توماس رأسه نافيًا:

- لا بالتّأكيد. لا شيء سامّ في الأرطماسيا، لا بل تُنْسَبُ إليها فوائدُ طبّيّة، فهي مسكّنة للآلام ومطهّرة...

عاد أبايغور، ونزل جذلًا. واقترب من النّبتة وقطف من نبات حول قدميّ حفنة ووضعها داخل جيبه، ثمّ انطلق يشرح بلغة

(1) عشبة تكثر في الحدائق والأماكن المهجورة في كل أنحاء العالم، لها استخدامات طبية. (المترجمة).

التّهاشق. وانفجر ضاحكًا أمام هيئتي المضطربة، ثمّ ربّت على كتفي ورسم بسبّابته دائرة، وقال: «ستفهم لاحقًا».

واستأنفت المجموعة المسير على إيقاعها الأوّل.

- آه، هذا فربيون[1]! جيّد جدًّا...

كان توماس مفتونًا بغصن منبثق من الرّمال تزيّنه أوراق ملتفّة على نحو غريب.

وجثوتُ على رُكبتَيَّ.

فصاح:

- لا!. لا تلمسه، فنسغه مادة أكّالة، والحيوانات تبتعد عنه.

فابتعدتُ عنه كحيوان مطيع.

- هل تعرف كلّ النّباتات؟

- كلّها لا، ولكن الكثير منها. فأنا أجمع الأعشاب منذ ثلاثين عامًا، وإن كان اختصاصي البراكين.

كان توماس الخمسينيّ الملتحي يدرّس مادة الجيولوجيا في جامعة كايين. وقد دفعت وكالة الرّحلات في باريس كلفة رحلته كي ينقل معرفته إلى المسافرين.

وكانا اثنين في هذه الحالة: توماس الجيولوجي، وجان بيير الفلكيّ. فهما مُكلَّفَان بمهمّة وصف العالم لنا، الأوّل يصفه لنا في النّهار والثّاني في اللّيل. وكنت أقدّر هذه الصّحبة العلميّة غاية التّقدير، وأعتبر نفسي محظوظًا جدًّا بالاستفادة منها.

(1) فربيون: الحلاب أو الحلبوب، جنس نبات لبنيّ أنواعه كثيرة. (المترجمة).

كنّا نتوقّف كلّ ساعة ويطفق توماس يفسّر لنا تَشَكُّلَ التّضاريس وتطوّرها وتآكلها. كان المنظر يكتسي بفضله بُعْدَيْن جديدين: البعد الزّمنيّ والبعد الحركيّ. كان العالِم يُضفي على هذا العالم السّاكن تاريخًا، وتحت الهدوء السّطحي للمنظر البانوراميّ، تشعّ اندفاعات، وثورات، وصراعات، وصهارات، وضغوط، وانكسارات، وانتصارات، وتراجعات. ومن فرط دهشتي بهذه التّعليقات والشّروح، كنت أشعر بأنّنا نزور ساحة معركة. وبعد انتهائها كانت الكتل الصّخريّة والصّدوع والوديان تمثّل الجنود القتلى أو النّاجين من الموت.

قال لي عندما اعترفت له بإحساسي:

– أنت مخطئ... المعركة لم تنتهِ بعد... مازال هناك حراك، والتّغيير مستمرّ، ولكن بسرعة لا تُدرك بالقياس البشريّ.

– آه، صحيح... هذا ما كان يقوله فونتونيل: «في ذاكرةِ وردةٍ لا يُرَى موتُ البستانيّ أبدًا».

عبس وهو يحكّ أذنه. فانتبهتُ إلى أنّه غير قادر على سماع الشّعر والتّعبير المجازيّ والفلسفة. كان يريد أن يعرف فحسب. ولا يريد أن يتخيّل ولا أن يحلم، فهذه أنشطة تافهة...

كان توماس مُولَعًا بإطلاق الأسماء وبوضع اسم على كلّ عنصر كان العلم قد خصّه به. كان يغطّي العالمَ بالكلمات ويضع عليه قاموسا. فإن أخطأ المرء في تسمية تفّاحة أو أيّ نبتة أخرى، عدّ هذا الخطأ إيغالًا في الجهل لا يُغتفَر، إذ لم يكن يقبل بالحلول الوسطى، وكان يفرض الدّقّة إلى درجةٍ تجعله يلوم الطّبيعة نفسَها أحيانًا إن

افتقرت إلى هذه الدّقّة.

- منطقيًّا، كان علينا أن نعثر على حنظل الصّحراء، فهو ينبت في المنخفضات الصّخريّة. لكن هل مازال الوقت مبكّرا من السّنة؟ إلّا إذا كان هذا النّبات المتسلّق الجافّ هناك تماما... نعم، هذا هو. أخيرًا! هذا جيّد، هذا جيّد...

وفي الواقع، كانت هذه رحلته الأولى إلى الجزائر، لذلك لم يكن يستكشف، وإنّما كان يضع المعايير مقارنًا الصّحراء المتخيّلة بالصّحراء الواقعيّة.

- روميكسفير سيكاريس[1]! هذا جيّد، هذا جيّد...

لقد منح الأرض علامة الصّواب!

لم يكن يمتحن صحّة معارفه، بل صحّة المكان. كان يقلب القاعدة، فالصّحراء في امتحان وليس هو. كانت الصّحراء هي الّتي تُرضي العالِم أو تخيّب أمله حين لا تقدّم له الأعشاب المرجوّة أو الفالق الجيولوجيّ الّذي يأمل أن يراه.

وفي نهاية المطاف، بعد الاستراحة الرّابعة، كان المعلّم راضيًا، ليس على نفسه، بل على الصّحراء.

- هذا جيّد، هذا جيّد...

وعاجل مرشدَينا أبايغور ودونالد بابتسامة مغتبطة كي يهنّئهما دون شكّ على تقديمهما صحراء ممتازة، صحراء تفي بالغرض، بتلك الابتسامة الّتي كان يخصّ بها موظّفي المِخْبر الّذين يحضّرون له أعماله

(1) حمّاض، جنس نبات عشبي صحراوي من فصيلة البطباطيات. (المترجمة).

في جامعة كايين.

- رالاس.

وترجم لنا الأميركي صيحة الطّارقيّ.

- توقّفوا. سنقيم مخيّمنا هنا.

وألقينا حقائبنا على الأرض. وقلتُ محتجًّا:

- أين هي الصّحراء؟

- هناك، في الخلف تمامًا.

واعترض جان بيير:

- سبق أن قلت هذا يا دونالد.

- هذا صحيح بالتّأكيد. من يرغب في المزيد من المجازفة فليرافقني.

ومشى في أعقاب دونالد أربعة منّا فقط. وبعد أن تسلّقنا ستّ هضاب واجتزنا ثلاثة مضائق صخريّة، توقّف دونالد فوق قمّة وأشار بيده إلى البعيد.

- ها هي...

لقد اقتربنا.

ما عسى المرء يتوقّع أن يرى عند نظره إلى الصّحراء؟ لا شيء، إذا كانت هذه هي الصّحراء، فهذا تماما ما كان تحت أنظارنا: لا شيء. سهل مسطّح جافّ، دون أيّ تفصيل يسترعي الانتباه، سهل ينتهي بالتّلاشي عند الأفق.

- لماذا توقّفنا وراءها؟

- من الأفضل المبيت بين الصّخور. ستكون هناك رياح أقلّ.

وكأنّ الطّبيعة سمعته، ولفّتنا هبّة ريح شديدة العداوة، مثل كلب يشمّ غريبًا.

- لنعُد! ستلاحظون في هذا الفصل من السّنة أنّنا نهوي من النّهار إلى اللّيل في لمح البصر.

أثناء الوقت المُستغرق في العودة إلى الوادي أظلمت السّماء. وصلتُ إلى المخيّم الّذي أصبح جليديًّا وأنا أرتجف من البرد. وحمل النّور معه بعضًا من الدّفء. وأخرجت من بين أمتعتي كنزة ثمّ بطانيّة صوفيّة وتدثّرت بها. فقد تسرّب اللّيل إلى جلدي.

كان أبايغور الّذي جمع الأغصان الجافّة يشعل النّار بينما كان دونالد يفتح علب الطّعام.

وبدأ أفراد الرّحلة يمرحون وراء الصّخور. ثمّ، اختار كلّ واحد المكان الّذي سيضع فيه غرفته المؤقّتة -حقيبة الظّهر وكيس النّوم-. كان المبتدئون يختلسون النّظر إلى الملمّين بالرّحلات. وكما هو متوقّع، اقترب الأزواج من نار المخيّم وآثر العزّاب المهتمّون بالمغامرة أكثر الابتعاد عنها.

وبين النّار والصّخور المجاورة، اخترتُ بقعة رمليّة لها شكل سرير. نظّفتُ المكان، وأزلتُ أشواك الأكاسيا والحصى وبعر القوارض.

أفرغت متاعي وأنا جالس، ورتّبته بحركة آليّة. ولم يكن لحركاتي

أيّ معنى ولا أيّ هدف، كان المغزى منها إشغال نفسي فحسب.

كنت حائرًا.

فهذا التّوقّف يقلقني... وأنا أفضّل أن أواصل السَّيْرَ، أن أسير دائما، أن أسير حتّى الإنهاك. لم أكن أرغب في التفكير. المضيّ قدما يمنحني الشّعور بأنّني سأصل إلى مكان ما، بينما يؤكّد لي التّوقّف أنّي لست في أيّ مكان.

كان الظّلام يمحو كلّ شيء، التّضاريس، والمسافات، والأشياء، والبشر. وكان حماس هذا النّهار وأهمّيته يذويان في عدم عابر.

خفتُ من اللّيل، من زمرة لا أعرفها. خفتُ من المرشد الأميركيّ الذي كان زيادة على ذلك يمثّل الكفاية التي لا يجسّدها حقّا. خفتُ من جيرار الّذي كنت أعرف عنه الشّيء القليل وها هو قد ابتعد لتوّه إلى الأعلى، بعيدا جدّا، كي يُفهمنا أنّه لا يسافر معنا إلّا مرغما.

كنت أخاف العطش، أخاف الجوعَ والتّعبَ، وأخشى الحيوان الختّال الّذي يرقبني أثناء نومي، أخاف العقربَ الّذي قد يعشّش في جوف حذائي في اللّيل، كنت أخاف...

كائن وحيد كان يطمئنني: أبايغور الطارقي.

كأنّه حدس ما كنت أشعر به، رفع رأسه ناحيتي، وابتسم لي ودعاني إلى الانضمام إليه.

تسلّلت إلى جانبه أمام النّار. قدّم لي شايًا محلّى بالنّعناع. فأحطت الكأس السّاخن براحتيْ يديّ المثلّجتيْن.

– شكرًا.

وردّ بلطف:

- *تانيميرت*.

- *تانيميرت*.

أومأ برأسه مسرورًا لسماعي أفلح بترديدها فورًا.

-*اسمنيك*؟

كنت أودّ الردّ. لكنّي بدوت بمظهر الخائب الّذي أضحكه كثيرًا. وأمسك دونالد بمرفقه وراح يثرثر معه بضع عبارات.

ثمّ مال ناحيتي:

- يسألك ما أسمك؟

توجّهت إلى أبايغور.

- إيريك.

حاول بدوره جاهدًا لفظ اسمي بشكل جيّد، اسمي الّذي أهملت عمدًا لفظ نصفه.

- إيرّرريك.

ضحكتُ كضحكه، مثل طفل مبتهج ،وليس كي أسخر.

وأخرج من ثنايا ردائه النّيليّ عيدانَ النّبات الّتي كان قد قطفها، ووضعها في إناء الماء، ثمّ وضع الكلّ فوق الجمر.

وردّد:

- *نيراغاليه*.

ربّما تكون اسم الأرطماسيا بلغة التّماشق...

ساعدت الرّجلين في إعداد الشّاي. وغادرني الاضطراب. وبعد أوّل كأس من الشّاي، شعرت بالتّحسّن، عند الثّانية أصبحتُ نشوانَ، وبعد الثّالثة، سكرانَ. وغمرت أسياخ لحم الضّأن اللّذيذة معدتي بالغبطة، وعندما قدّموا لي التّحلية، لم أكن أفكّر سوى في الاستلقاء.

لم أكن المرهق الوحيد بين المشاركين، لذلك اتّفقوا على تأجيل جلسة الفلك الّتي اقترحها جان بيير إلى يوم الغد.

وانسحب الطوّافون، واحدًا تلو الآخر، وأنا مثلهم فعلتُ.

وكالعادة، أخرجتُ كتابًا من حقيبتي كي أقرأ، حسب طقسي المسائيّ. أضأت فوق جبيني مصباحا، لكن للأسف كان يوزّع نورا خافتا يندثر في العتمة على بعد متر واحد.

ورحت أبذل جهدي غيرَ قادر على التّركيز، تتراقص السّطور على الصّفحات ولا أستوعب الجمل. وعلى الرّغم من ذلك، كنت مصرّا على القراءة.

هل يمكن أن أستسلم للنّوم في هذا المحيط الخطر؟ مستحيل! ما كنت لأستسلم قطّ. كان جفناي يرفّان كي أبقى مستيقظًا.

وفجأة مرّ خيال باتّجاهي. واقتربت يدان من وجهي فتجمّدتُ.

كان أبايغور قبالتي، وقد أعماه نور المصباح. ورمش لي بعينيه يطلب منّي إطفاءه. وناولتني يداه الرّهيفتان شرابا.

وألقيتُ مصباحي.

وسادت العتمة مريحةً بعد أن كان يمزّقها سيف الضّوء.

ووضع أبايغور الطّاس على شفتيّ وشجّعني على الشّرب.

تجرّعتُ المنقوع بطواعية. وظلّ إلى جانبي طوال الوقت اللاّزم كي أنهي السّائل المرّ، مثل أمّ تدلّل طفلها.

وعند آخر جرعة، أخذ مني الطّاس وهمس بصوت خافت:

-*آر توفات*.

وهذه المرّة، فهمتُ دون تردّد: «إلى الغد، طابت ليلتك».

هل كان ذلك أثر الأرطماسيا؟ أم المودّة؟ أم التّعب المتراكم؟

وغفوت في الحال.

(5)

دغدغت رائحةُ الفجر منخريّ، يا له من شذى نظافة ترافقها رطوبة.

وفي اللّحظة الّتي فتحت فيها عينيّ واستعدتُ الوعي بكلّ شيء: أنا، المكان، رحلتنا. انتابني، في الحقيقة، إحساسٌ بأنّني أغمضت للتوّ عينيّ منتظرًا رؤية الطّارقيّ أمامي.

كانت تطوف فوق الوادي سحب كالحليب. وفي تلك السّاعة، كانت الشّمس تستغرق وقتها كي تعلو في كبد السّماء.

وحين استويت في جلستي، لامست يداي الحصى وقد بدا لي ناضحًا بالعرق بعض الشّيء. جسسته، الرّمل أيضًا كان بمثابة سطح مشرّب. هذا لا يُعقَل... هل يمكن أن يكون هناك ندى في الصّحراء؟

كان مرشدانا اللّذان نهضا منذ برهة يعدّان وجبة خفيفة ريثما يجمع المشاة أمتعتهم. وعلى عادتي، كنتُ آخرَ من وصل. وما إن جلست مقمّطًا ببطانيّتي حتّى وافاني جيرار مفعمًا بالنّشاط يلوح لون السّماء في عينيه سعيدًا باستنشاق هذا الهواء.

- هل أمضيت ليلة هانئة؟

- لم أمضِ ليلة نهائيًّا، بل وقعتُ في هوّة لثانيتين.

- كانت إذن ليلة هانئة! والشّيء نفسه حدث معي... ولم يحدث لي شيء كهذا منذ سنين، هل تفهمني؟ آه، حذار العقارب وأنت تعيد لبس حذائك، إنّها مولعة بالجوارب الرّطبة.

وشرع جيرار يجول بعيدا عن الجمع، تشدّه الطّبيعة بقدر ما يبعده البشر.

وأخذتُ عصا، وبتحدٍّ تفحصّت حذائي بدقّة وفحصتُ حقيبتي من الدّاخل، والملابس المكدّسة فوق الأرض. الحمد لله، لم ألحظ وجود معتدين، بإمكاني ارتداء ملابسي.

كان بنطالي الجينز قد أشعرني بالحرّ اللّيلة الماضية، لذلك اكتفيت بارتداء شورت وقميص.

عندما رآني أبايغور أصل إلى موقد الغاز حيث كان يحضّر الإفطار دون وصفة جاهزة، انفجر ضاحكًا وهو يشير بإصبعه نحوي.

قلت له وقد سرّني ابتهاجه:

- ما بك؟ ألم ترَ شيئًا كهذا من قبل؟

وشرح لي دونالد وقد ارتدى بنطال برمودا أنّ رجل البراري لا يتعرّى أبدًا.

- هل يرى في ذلك قلّة حياء؟

- يرى هذا غير مُجْدٍ. وهو يقدّر أنّ لفح الحرّ سيكون أقلّ تحت طبقات القماش والقطن. هل تعلم؟ إنّه على حق.

ووجّه أبايغور سؤالًا ترجمه لي دونالد:

- إنّه مندهش من ساقَيْك القويّتين ويسألني عن مهنتك.

- أستاذ فلسفة.

وتبادل أبايغور بعض الكلمات مع دونالد. ثمّ قال الأميركيّ:

- مازال لا يفهم قوّة ساقيك!

- إممم، إرث ثقيل: كان والداي رياضيّين من الطّراز الأوّل، أمّي بطلة فرنسا في الجري السّريع، وأبي بطل الجامعة في الملاكمة.

ونقل دونالد المعلومات إلى أبايغور باهتمام. ودار بينهما حديث استمرّ لبضع دقائق. وعندما توقفا، قلت مندهشًا:

- هل يلزم كلّ هذا الهذر كي تترجم له ما قلت؟

- أبايغور لا يصدّقني بخصوص أمّك.

- ومع ذلك، هذا صحيح! لقد ظلّ رقمها القياسيّ عشرين عامًا حتّى تحطّم!

- آه، ليس هذا، إنّه لا يتخيّل أنّ المرأة تستطيع أن تمارس الرّياضة، والجري على وجه الخصوص. وهو يظنّ أنّنا نمزح.

- هل لديه عن النّساء فكرة متدنّية؟

- بلى، على العكس، لهنّ قيمة سامية لديه. فعند الطّوارق، تستحوذ النّساء على الوظائف النّبيلة: فهنّ أمينات القوانين، وكاهنات كاتبات، وهنّ السّاهرات على الثّقافة. وقلّة من الشّعوب تحترم المرأة على هذا القدر.

وافقته وأنا أتذكّر «داسين» الملكة الرّائعة الجمال، أميرة الشِّعر، كنت قد اكتشفتُها أثناء أبحاثي عن شارل دو فوكو، كان ذكاؤها الأسطوريّ يعادل أناقتها، وكانت تبشّر المحاربينَ الأشدّاء بالحبّ.

- «حتى الماء يعرف كيف يقول *لنا أحبّك* حين يطبع على شفاهنا أحلى القبلات».

وتعجّب دونالد وهو يعقد حاجبيه:

- عفوًا؟

- لا شيء. قصيدة لداسين تذكّرتها...

لا يمكن أن تسلك سوى طريق واحد في الوقت ذاته.

لا يمكن أن تعبر سوى صحراء واحدة أيضًا. كانت صحراء ذلك اليوم تهدي إليّ حفلة تعميد. كانت أرضًا مصدّعة تغطّيها الرمال، كافرةً بكلّ نبات، أفقًا لا أفق له وأبخرة مائجة تعكّر اللاّمتناهي.

بعد أن تحرّكت قافلتنا، اشتدّت حرارة القشرة المصفرّة تحت نعالنا وبهرت أنظارنا عاكسة الأشعّة الحارقة. كنت أحاول وعيناي نصف مغمضتين، دامعًا وراء نظّارتي الشّمسية، أن أتأقلم مع هذا الضّوء المفرط، وكنت أحيانًا أخفض جفنيّ لعشرين مترًا أو ثلاثين، ولم يكن ذلك لينفعني بشيء، إذ أنّ العرق الممتزج مع الواقي الشّمسيّ كان يلهب قرنيّتيّ. كنت كالأعمى أتدحرج في عمق اللّهيب.

وإن كنت لا أرى، فإنّني كنت مرهف السّمع، يهاجم أذنيّ أدنى صوت: تنفّس، شهيق، طقطقة القصعات، بصاق الجِمال، اصطدام النّعال. وعندما كان أحدهم يتكلّم، ولو بعيدًا في الوراء، كنت أميّز كلّ شيء، حتّى التّنهّدات وراء الكلمات والعطش خلف العبارات العاديّة. كان هدوء الاتّساع العظيم يمنح الأصوات حضورًا قويًّا، بل فاضحًا.

حذّرنا دونالد من أنّنا سنكون تحت الشّمس أثناء استراحة الغداء، تحت شمس الظّهيرة، والأسوأ من ذلك، غياب الظّلّ في المدى الحالي.

ماذا يمكن أن تردّ على ذلك؟

ليس لك إلاّ الصّمت والتّحمّل.

كانت كلّ خطوة تشعرك بالانتصار، وكلّ جهد كان يعلن عن هزيمة.

أمّا أبايغور، فكان يتقدّم دون مشقّة، جِماله الثّلاثة معه. والأربعة، هادئون، يتباطؤون، كما لو أنّهم يسيرون دوننا، ويُظهرون لنا إلى أيّ حد نحن غرباء، غرباء عن الصّحراء، عن المناخ، عن العراء البرّي، حتّى أنّي شككتُ في أنّ الجِمال ترفع أكتافها هازئة بنا.

آه، كم تمنّيت عبور النّهار، وأكثر من ذلك المساء... واللّيل، اللّيل الذي أرعبني في الأمس، ها هو الآن ينتظرني مثل مكافأة في آخر الطّريق.

نحو السّاعة الواحدة، أتاحت لنا وجبة الخبز والجبن والنّقانق استعادة قوانا.

كان أبايغور يقضم الفواكه الجافّة. كيف كان بوسعه الاستمرار دون أن يحترق جلده وقرنيّتُه؟ هل تكفي الكوفيّة الّتي يلفّ بها وجهه لحمايته؟ كان يبدو لي أنّه مصوغ من لحم مختلف عن لحمنا، لحمٍ أكثر تفوّقًا...

بعد الظهر، تحسّن أداؤنا بعدما بدأت أجسامنا تعتاد على خشونة

الظّروف. وتمكّنت من فتح جفنيّ، وكنت أتقدّم بشكل آليّ دون إرادة.

قليلة هي الأفكار الّتي كانت تعبر رأسي.

ورحت ألوم نفسي.

«تجد نفسك أخيرًا في أفضل مكان للتّأمّل ولا تستغلّ ذلك!».

كنت أستشيط غضبًا، إذ أنّ مزاجي المسموم لم يتغيّر في شيء. وكان رأسي يفرغ.

«يا للعار! جئتَ تتأمّل في الصّحراء. ولا شيء...».

نعم كان غضبي قد انصبّ في الصّباح على جسمي العاجز، ها هو ينقضّ من الآن فصاعدًا على ذهني. كنت خائبًا من نفسي إلى حدّ تحوّلت معه الخيبة إلى سخط، وحقدت على نفسي.

- *رالاس*.

توقّفت القافلة عن الحركة. هنا، لابدّ أنّ نهرا كان يجري في الماضي، في عصرٍ كان أستاذ الجيولوجيا يحاول تحديده. ولم تبقَ من النّهر سوى أشكال مبهمة كالوهاد، ستقدّم لنا الموضع المثاليّ لنصب مخيّمنا اللّيلي فيه.

تخلّص الحجّاج من حقائبهم دون احتراز، فقد أعياهم التّعب. ووزّع دونالد علينا مشروب الصّودا.

وما إن وصل أبايغور حتّى أوقد نار المخيّم. ظننت أنّه سيقدّم الشّاي، -الكؤوس الثّلاثة التّقليديّة-، لكنّه غسل يديه متروّيا بكلّ تركيز، ثمّ سكب الطّحين والماء في قصعة. وغمزني دونالد.

- سيصنع خبزًا.

- عفوًا؟ كيف سيصنع الخبز وما من فرن هنا؟

- أُنظر، سيبني فُرْنًا.

بعد أن عرك أبايغور المزيج حتّى أصبح عجينة كثيفة ومرنة تنزلق من بين أصابعه، جعلها في شكل فطيرة.

وعاد إلى الموقد وحفر مساحة وسط الرّمال ومسّدها بقعر وعائه، ثمّ أحرق سطح العجينة بخفّة مستخدمًا قصاصات عشب يابس مشتعل.

وهمس لي دونالد:

- هكذا لن تعلق الرّمال عليها.

ووضع ما أعدّه في عمق الحفرة، وغطّاها بالرّمال، ثمّ وضع فوقها الجمر.

وترك فطيرته خَمْسَ عشْرَة دقيقةً لتنضج وهو يدندن. ثمّ عاد وحفر مرّة أخرى كي يقلبها. وانتظر بصبر خمس عشرة دقيقة أخرى، ثمّ أخرج رغيفًا صلبا مقرمشًا. ونفض بحزمة من العشب، الغبارَ عن سطح الرّغيف اليابس.

كنت أراقبه مفتونًا، كان الهدوء الّذي يظهر عليه وهو ينجز وصفته يجلب إليّ السّكينة. فإن كان النّهار شاقًّا عليّ وأنا ألحّ في إلقاء اللّائمة على نفسي، فقد جعلني هذا الإنسان القديم، إذ يتحرّك، أو ينشغل بإطعام الآخرين، أشعرُ نحوه بتضامنٍ هدّأ نفسي.

وبينما كان أبايغور يتابع تحضير رغيفه، توقّفت عن تعذيب ذاتي

وَلَكْمِهَا بألف سؤال وملامة: أضحيت له مشاهدًا مطواعًا.

والآن أراه يشطف رغيفه بالماء.

السّيّارة الحمراء...

عاودتني ذكرى من الماضي. السّيّارة الحمراء...

لم تستعجل الذّكرى في الوصول. هي قادمة من بعيد، ها هي تصل إلى ذهني رويدًا رويدًا وتحلّ برفق، وعمّا قريب ستنكشف كلّيًّا.

السّيّارة الحمراء...

ورأيت نفسي من جديد في ذلك اليوم إلى جانب والدي، أجلس في سيّارتي، سيّارة السّباق القرمزيّة الصّغيرة ذات الدوّاسات التي تلقّيتها هديّة في عيد الميلاد قبل بضعة أشهر. كنت أنزل المنحدر الضّيّق المؤدّي إلى مبنى بيتنا «لا تارانتيز»، الواقع على هضبة «سان فوي لاس ليون». كم كان عمري؟ أربع سنوات ونصف... أوخمسًا... كنت أدير الدّوّاسات كي أقنع والدي بأنّه يسير إلى جانب بطل الفورمولا 1، لكنّ جهدي لم يفلح إلّا بمواكبة خطواته البطيئة.

كان يومًا مشمسًا.

في وسط الدّرب الّذي تحفّه الشّجيرات، انتابني فجأة حدس بأنّ النّور كان يتغيّر. وارتفع أمامي ستار يفضي إلى منظر بانوراميّ، انحبست أنفاسي واتّسعت نظراتي. كانت تمتدّ تحت قدميّ مدينة ليون بسطوحها الحمراء الكرزيّة والمرجانيّة وأبراج كنائسها ومداخن مصانعها الدّاخنة ونهرها المتعرّج، ثمّ تراءت لي في البعيدِ الحصونُ الجبليّة بلونها الأخضر الدّاكن، والقمم المكلّلة بالثّلوج مهيبة وساحرة.

وأحسست بقوّة وجود والدي على يساري، كان حضورُه متوهّجًا. ومع أن رأسي لم يكن يصل إلّا إلى ركبتيه، إزاء بنطاله المخمليّ المضلّع، كان عليّ أن ألوي عنقي كي أرى جذعه المغطّى بقميصٍ أبيض اللون، وأعلى بقليل، ذقنه المكسوّة بلحية خفيفة. كان يمشي مستغرقًا في أفكاره.

«أنا هنا».

وصعقني وضوح هذه الحقيقة: كنت هناك، في قلب هذا الكون، إلى جانب والدي! نعم، كانت مفاجأتي اكتشافي أنّني أحيا.

«اسمي إيريك، إيريك إيمانويل، وأنا ابن بول شميت، إنّني موجود».

فخورًا، نشوان من الفرح، منفعلاً، ولدت للتّوّ، ليست ولادة في العالم، إنّما هي ولادة في ذاتي. رحت أستنشق هواء الرّبيع ملء رئتيّ على نحو لا سابق له. كان دمي يدغدغ كلّ خليّة في جسمي.

يا له من هناء. كان ذاك يومي الأوّل، الأوّل من الحياة الواعية. كنت وأنا أغادر غموض الطّفولة البدائيّ أتّخذ موقعي أخيرًا وسط العالم، موقع الإنسان. كنت في السّابق كمن يعيش مشوّشًا، أتخبّط في الظّلام، عشت دون أن أعي ذلك، لكن في ذلك الصّباح كان تاريخي يبدأ.

«اسمي إيريك إيمانويل، أنا ابن بول شميت، وأنا موجود».

لم تعد كلمة : «أنا» تنتمي إلى قواعد اللغة، تملّكتها، صارت مفهومًا مزدوج المحتوى، وارتقيتُ من درك مسافر متخفٍّ، إلى

مرتبة مسافر سافر وبصير.

عاهدتُ نفسي وأقسمت: «يجب عليّ أن أتذكّر هذه اللّحظة».

غابت هذه الذّكرى لعقدين من الزّمن، لكنّ يدَيْ أبايغور اللّتين كانتا تداعبان الرّغيف السّاخن اقتلعتاها من النّسيان.

هل انتكستُ منذ ذلك الحبور في عمر الخمس سنوات؟ في كلّ الأحوال، عشت على الدّوام دون أن أنتبه، لم أكن أميّز فرط النّشاط من سعادة الوجود. تحرّكت فعلًا أكثر ممّا استمتعت. وتراكمت عليّ المشاكل وأنا أهمل الاستمتاع بالكنز البسيط: أن أحيا.

كان أبايغور يكسر رغيفه إلى قطع ويلقيها في حساء الخضار.

قال مشيرًا إلى الطّبق:

- *تاغيلا*.

تأمّلته معترفا بالجميل، لقد أوصلتني يداه الماهرتان إلى الجوهر: دهشة الفرح.

فعلى هذه الأرض، ليست مناسبات الدّهشة ما نفتقر إليه، إنّما نفتقر إلى المندهشين.

(6)

صحيح أنّ الصّحراء منبسطة، إلّا أنّها كانت تعرج بنا نحو السّماوات، حيث تتلألأ النّجوم قريبة إلى درجةٍ تُتيح قطفها. وكأنّها تفاحات كبيرة لامعة تتدلّى في متناول اليد، وكأنّ جبال هقار بستان تنمو فيه أشجارها.

ليْلاً تتّخذ الصّحراء هيئةً احتفاليّة. يعذّبنا الزّهد تحت شمسها، لكنّها تمسي في اللّيل غنيّة، مستفيضة، كريمة، شرقيّة، تهدي بفيضٍ جواهرَ صاغها أكثر الصّاغة جنونًا، تهدي عقودا وقلائدَ وتيجان ألماس، وسلاسل ذهبيّة وأساور برّاقة، آلاف النّجوم تزيّن صندوق المجوهرات المخمليّ الدّاكن، والقمر الفضيّ السّيّد يشعّ بنوره المتغطرس حوله كملك في حفلة راقصة.

ابتعدنا عن النّار كي تعتاد أحداقنا على بصيص الأجرام السّماويّة. كانت الأرض المخيفة تسحق السّهول والكثبان والصّخور في بوتقة واحدة مليئة بالرّماد.

كان جان بيير يقف وسط الحجّاج المثقلين بالجراح كي يعطينا درسًا في الفلك.

إنّه جان بيير المنتمي إلى مرصد تولوز والمدرّس في الجامعة، صوته يتهدّج من الانفعال وهو يشرح في قاعة الدّرس اللّامحدودة هذه.

وللمرّة الأولى في حياته، كان بوسعه الإشارة إلى النّجم بطرف عينه، أو أن يخطّ بإصبعه فوق لوح السّماء الخطوط الّتي تشكّل الكوكبة، ولم يسبق أن كان لكوكب الجوزاء أو الدّبّ الأصغر أو الأكبر هذا التّماسك والتّلاصق.

هنا وفي غياب أيّ تلوّث ضوئيّ ناتج عن الحضارة، يبسط الكون أبّهته. كان يكفيني تأمّله. هل كنت بحاجة إلى تسميته كي أعجب به؟ هل أحتاج إلى عدّ النّجوم؟ أمّا الفيزيائيّ فقد كان يتململ متحمّسا منذ الأمس كي يوزّع علينا معارفه.

وخلافًا للنّهار الّذي يضع حدًّا للسّماء بلونها اللاّزورديّ، لم يكن للّيل حدود. كان يكشف لنا عن أماكن مخيفة تتخفّى على بعد ملايين الكيلومترات. وكانت النّجوم الميتة الّتي يصلنا منها ذيلها المضيء تُظهر لنا حقائق غامضة ومختفية.

حين كان جان بيير يصف لنا السّماء، كان يضعنا أمام لامتناهيّين: لامتناهي الزّمان ولامتناهي المكان.

ولطالما صعب عليّ إدراك اللّامتناهي، وإن توصّلت إلى التّفكير فيه، فإنّي كنت أفشل في تصوّره. بالمعنى الفلسفيّ، يظهر له تعريف واضح: «ما ليس له حدود»، وبالمعنى الرّياضيّ أيضًا «ما عدد عناصره أكبر من أيّ عدد تختاره»، وبالمقابل، تتشوّش مخيّلتي. وما إن تمثل الصّور في ذهني حتّى تصبح محسوسة: أرى حدًّا تلو الحدّ ولا أرى اللّانهاية، أتصوّر عددًا وأضيف إليه وحدة قياس، ولا ألمح العدد اللّانهائيّ. باختصار، بينما يبرع ذهني في التّجريد تشبّ

حواسّي أمام العوائق.

وتحت السّماء، كنت أرغم نفسي على اختلاق نجوم أُخرى وراء النّجوم، ودروب تبّانة أخرى وراء دربنا، رافضًا الحدود دون أن أدرك أيّ حدّ... لم يكن دماغي يريني سوى خلفيّة سوداء مرصّعة باللآّلئ تعبرها مخيّلتي وتضاعفها وتعود لتجتازها من جديد، دون أن تلامس المطلق.

وجادت قريحة عالمنا الفلكيّ جان بيير، مثل أستاذ الجيولوجيا توماس، فكان يرفع الحجب عن المستور ويقصّ علينا الماضي السّرّيّ الّذي يختصّ به المنظر السّماويّ البانوراميّ.

وتنهّد مسرورًا:

– لنتذكّر طفولة الكون الأولى.

منذ أربعة عشر مليار سنة، كان الكون في حالة من الكثافة القصوى: مليار مليار المليارات في قطرة واحدة. وعندما انفجر –بيغ بانغ، وهو اسم أُطلق على النّظريّة– تناثرت المادّة وامتدّ الكون. ومنذ ذلك الحين وهو يتابع تمدّده. وتشير الملاحظة إلى أنّ المجرّات تبتعد عنّا بسرعة قياسيّة نظرًا إلى المسافة الّتي تفصلنا عنها... ويمكن القول إنّ هذا التّوسّع لانهائيّ... لو عدنا بالزّمن، لكان الكون ضئيلًا، وأكثر حرارة، وأكثر كثافة. في البدء، كانت الطّاقة مكوّنة من إشعاع، ثمّ انخفضت حدّة هذا الإشعاع حتّى أصبح أقلّ كثافة من المادّة. وعندئذ عادت المادّة لتهيمن على الكون، وفاقت الجاذبية القوى المغناطيسيّة. وبعد مليارات السّنين، كانت المجرّات نتيجة لهذا التّطوّر. ونحن أيضًا

نجسّد نتيجة لهذه التّغييرات. لسنا سوى غبار نجوم.

كان رفاقي في الرّحلة يحدّقون به ذاهلين فاغري الأفواه، موافقين ومقتنعين. ووقفوا واحدا تلو الآخر، واتّجهوا نحو المنظار المقرّب.

وبدأتُ أحلم في الحال... لطالما جعلت النّجوم الخرساء البشر ثرثارين. لم أكن أودّ التّحقّق من تاريخ النّجوم، وإنّما من تاريخ قصصها. كم كان هذا موغلًا في القدم! آه، لم أكن أعود إلى الوراء أربعة عشر مليار سنة، كنت أكتفي بالقفز قرنًا بعد قرن. إذا كان جان بيير يرسم لنا الكون اليوم بمنظار «هابل»، فإنّ عالِماً آخر قبل قرن مضى كان يرويه حسب نيوتن، وقبل ثلاثة قرون حسب غاليلي، وخلال القرون الوسطى والعصور القديمة كانوا يروونه حسب أفلاطون، وقبل ذلك، كان أحد الشّعراء أو السّحرة أو الكهنة ينشر عن العالم حكايته الخاصّة. كانوا يجتمعون ليلًا، والخطب تتوالى منذ فجر البشريّة. ولأنّ النّاس لا يحتملون الجهل، اخترعوا العلوم، ومازالوا يختلقون ضروبا من الأساطير، ويختلقون آلهة، ويخترعون علومًا. وتتغيّر الآلهة، وتتوالى، وتموت، وكذلك النّماذج الكونيّة ، ولا تدوم معها سوى رغبة واحدة، هي التّوق إلى التّفسير.

استحوذ عليّ التّأمّل طويلًا حتّى غبت عن دوري على المنظار. ولاحظ الأستاذ الجامعيّ تحفّظي.

- ألا توافقني الرّأي، سيّدي الفيلسوف؟

- بلى، إنّه بحث نظريّ جميل، «البيغ بانغ» هذه، مع ذلك، تبقى نظريّة... سوف تهمل... مثل تلك الّتي سبقتها... فلكلّ عصر

أسطورته.

- عذرًا! أنا أذكر حقيقة علميّة.

- في كلّ عصر من العصور على بعد خطوات من النّار، يظنّ خطيب الصّحراء أنّه يمتلك الحقيقة، ومعاصروه من حوله يشاركونه الاقتناع.

- هل تضع نظريّتي موضع الشّكّ؟

- تلك مهمّة الزّمن. أنت تحمل هذا المساء آخر صيحات العلم، ومع ذلك، أنت مثلي تعلم جيّدا أنّ نظريّتك ستصبح قديمة. وتبقى الحقيقة صعبة المنال، فليس هناك سوى حقائق مؤقّتة، أو محاولات حقيقة. وفي الواقع، إنّ نظريّتك تمثّل الطّريقة العصريّة في الإقامة داخل الجهل.

- الجهل؟... ردّد وهو يكاد يختنق.

وهمستُ:

- هذا يدعو للحزن، أليس كذلك؟

وأعقب تداول أفكارنا صمت ثقيل.

كانت مداخلتي مدعاة للانزعاج! لم يلتقط الفريق من نقدي النّسبيّ إلّا الاستفزاز الصّلف، أردت أن أكون متواضعًا بوضع أنفسنا -هو، ونحن، وأنا- في السّلّم الألفيّ للبشريّة، فإذ بي أظهر مدّعيًا.

ثمّ تابع بصوت حادّ:

- هل تحتقر العلم؟

- إطلاقًا! بل إنّي أنظر إليه نظرةَ اهتمامٍ وتقدير كما أفعل تجاه الأساطير والأديان.

كنت وأنا أحاجج أزيد الطّين بلّة. فوضع العلم في مستوى الأساطير والخرافات والقصص الخيالية وغير العقلانية قد أثار استنكار المجموعة. وشعرت بعدائهم يتنامى فصرفتهم عنّي بسؤال:

- هل بإمكانك يا جان بيير أن تعرّف لي نظريّة الثّقوب السّوداء؟ أجد صعوبة في فهمها.

ورمش جان بيير بعينيه راضيًا بدخولي إلى صفّ التّلاميذ وإعادة عرش الخبرة إليه. ثمّ ارتجل محاضرة رائعة.

واستعادت موسيقى المفاهيم العلميّة إيقاعها المسكّن. كانوا يبتسمون جميعًا وقد نسوا فضيحتي.

ودون تقدير حجم انتهاكي وفظاعته، قاطعت إحدى الشّعائر المقدّسة، وهي شعيرة التفسير. إنّ البشر الّذين تواجههم مظاهر غريبة -كالسّماء، والقمر، والفصول، والولادة، والموت-، يصرّون على رؤية تكوين غير مرئيّ تحت العالم المرئيّ. فالعقل يخاف من المجهول مثلما يخاف الجسد من الفراغ، لذلك ينسج قصصًا خياليّة على الدّوام كي يقضي على الشعور بالعزلة أو العجز. وأن يقترح تفسيرًا خيرٌ له من أن يظلّ جاهلاً، حتّى إن كان التّفسير مخلخلا فإنّه يبقى أفضل من غيابه. إنّ الحاجة إلى الفهم لا تُختصر بالرغبة في المحاكمة العقليّة، إنّها حاجة إلى الطّمأنينة وذلك بتعريف الغوامض وإيجاد نظام للفوضى. وفي الواقع، ترجع كلّ الإيضاحات إلى سبب

واحد: هو الخوف من عدم امتلاكها.

وصدر سؤال عن صوت أنثويّ:

- لماذا؟

وتردّد الصّوت:

- لماذا؟

كانت سيغولين تلحّ ونظرات الدّهشة تبدي لها إلى أيّ حدّ كان تدخّلها يذهل الجميع.

- أنت تقول «كيف» ولا تقول «لماذا»، لماذا الكون موجود؟ لماذا بدأت الطّاقة حركة أدّت إلى الحياة؟ لماذا وصلنا من انفجار بسيط إلى النّظام الشّمسيّ أو صرنا كائنات معقّدة مثل الحيوانات؟

- *لماذا* ليس سؤالًا علميًّا.

- هل تقصد أن العالِم لا يسأل أبدًا *لماذا*؟

- أقصد أن العالِم يعرف أنه لا يستطيع الإجابة علميّا عن «لماذا». لذلك يبقى في حدود الـ «كيف».

- *لماذا* هو السؤال الأهم.

- حقًّا؟ لكنّ سؤالا لا يجد جوابه، هل يبقى سؤالاً ذا قيمة؟ اسمحي لي سيغولين أن يكون رأيي ضدّ ما تقولين. وأنت ما رأيك سيّدي الفيلسوف؟

لقد نطق «الفيلسوف» بوضوح كأنه يقول: «مجوسيّ، فلكيّ،

مشعوذ»، وهو مفعم بغطرسة العالِم. فرددتُ:

- لا أحبّ سوى الأسئلة الّتي لا تحصل على جواب.

- آه، هكذا إذن؟

- نعم، إنّها تنمّي فضولي وتواضعي. ماذا عنك؟

وفهم أنّه إن أضاف كلمة واحدة، سأهاجمه. فتوقّف الحوار عند هذا الحدّ.

أمعنت سيغولين النّظر في وجهي. كلانا محبّ للأدب، وكنّا قد شرعنا في أحاديث حارّة.

- هل يمكن أن ترى الطّبيعة دون أن تسأل نفسك عن الاتّجاه الّذي تتّخذه؟ عن معناها؟ أمّا أنا فأمام كلّ هذه الخوارق، لا أستطيع منع نفسي من تصوّر أنّ ثمّة مخطّطًا، أو رسمًا ذكيًّا، والكون والحياة يشهدان على وجود عقل أعلى.

- الله؟

- الله. أنت تعتقد ذلك؟

وخفضت بصري. كنت أرتعب من الخوض في هذه المسائل، ولم أكن راغبًا في إظهار مكنونات نفسي إلى العلن.

وتشبّثت سيغولين بالهدف الّذي كانت ترمي إليه بقوّة:

- ألا تعتقد ذلك؟

- الله ليس موجودًا في داخلي إلّا في صيغة سؤال.

بعد ساعة، ابتعدتُ عن مهجع النّوم وعن الجمر الّذي ظلّ

مضطرمًا. رأيت المخيّم، ولم أتوقّف عن النظر إليه كنقطة مرجع، لم أكن أريد أن أتيه، كنت راغبًا في السّكينة والتّأمّل بين الرّمال والنّجوم.

اعترتني رعشات من البرد.. كانت أسناني تصطكّ، وجلست القرفصاء بين صخرتين كي أحتمي من الرّيح الّتي هبّت بغتة.

كان البرد يزداد شدّة مع دخولنا أكثر في ليلة فبراير هذه. شعرت بنفسي ثقيلًا، مفاصلي تؤلمني، وتحسّرت على انتمائي إلى هذه الأرض الكئيبة، وكم تمنّيت التّحليق نحو النّجوم.

وعاودتني الذّكرى...

كنت في الخامسة من عمري. أغلق أبي النّوافذ والسّتائر في شقّتنا في «سان فوي ليس ليون» حتّى تسود العتمة. كان يقدّم فقرته بإيماء ساحر، وقد جعل غرفة الصّالة مسرحا. كنت أرتعش من الفرح. أمسك بيده مصباحًا كهربائيّا، ووجّهه إلى كرة خشبيّة مرسوم عليها خارطة العالم تستند إلى محور فولاذيّ، تزيّن عادة غرفة أختي.

- هل تعرف لماذا يتعاقب اللّيل والنّهار؟

وهززتُ برأسي نافيًا.

أمسكَ المصباح على مبعدة من الكرة الأرضيّة.

- هذه هي الشّمس، وهذه هي الأرض. تدور الأرض حول نفسها في أربع وعشرين ساعة، والشّمس لا تتحرّك. أين نحن؟

وأشرتُ إلى البقعة الورديّة الّتي تمثّل فرنسا.

- بالضّبط. عندما تكون بلادنا في مواجهة الشّمس يكون النّهار.

لم تكن حزمة الضّوء تنير إلّا هذا الجانب من الكرة الأرضيّة.

- ثمّ...

وبدأ يدير الكرة.

- إذا تحرّكت الأرض فستأخذ هذا الجانب إلى الظّلام.

وتوقّف عندما وصلت الكرة الأرضيّة إلى الجانب.

- هذا هو مغيب الشّمس إذن.

ثمّ فتح عينيه على اتّساعهما كأنّه مقبل على إنجاز حركة خفّة.

- والآن، ها هو اللّيل!

وأنهى حركته: منذ الآن، لن نرى البقعة الورديّة، فظهرها موجّه إلى ضوء الشّمس.

- هل تفهم؟

- نعم.

- هل لديك أسئلة؟

- واحد.

- ما هو؟

- أين الله في كلّ هذا؟

وتجهّم وجه أبي، واجتاح حدقتيه نوعٌ من الفراغ. كان يبدو خائبًا، سئمًا. حكّ رأسه وانتهى به المطاف إلى الاعتراف بصوت منهك.

- الله ليس في أيّ مكان. أنا لا أراه.

وأشعل النّور من جديد، النّور الّذي أعاد إلى الأشياء ألوانها، وأحدث تغييرًا.

هشّ بابتسامة، وأرسل إليّ قبلة، ثمّ ذهب كي ينام دون أن ينبس ببنت شفة وقد تهدّلت كتفاه.

لمَ كلّ هذا العذاب؟ في ذاك الوقت، انتابني إحساس من ارتكب خطيئة وتفوّه بقول غبيّ. وباختصار، شعرت بأنّي أحبطت الفقرة الّتي قدّمها لي. واليوم، أفسّر يأسه بطريقة مختلفة. كان والدي يتألّم دون شكّ بسبب إلحاده، سيّما أنّه كان ابن أمّ مؤمنة وكان يعشقها ويحلم بأن يشاركها إيمانها... ودون شكّ أيضًا، كأب ضالّ، كان يودّ أن يعلن لابنه أن الله موجود... وهذا الخبر السارّ... نعمة لم يكن بوسعه نقلها...

انسلّ خيال بين قدميّ... وقفزت فوق الصّخرة أفعى! أفعى بقرنين...

خفق قلبي هلعًا. وانقطعت أنفاسي.

وعملت جاهدًا كي أهدّئ من روعي وأنا أفكّر، حسب معلوماتي الأفاعي تنام في اللّيل.

هل هذا عنكبوت إذن؟ أو أحد القوارض؟ ماذا لو أنّني أيقظت أحد الزّواحف...

ونظرتُ إلى الصّحراء المظلمة من حولي.

«أين الله في كلّ هذا؟»

أنا أيضًا لم أكن أراه...

(7)

كان أبايغور يصلّي متّجهًا إلى القبلة.

ما بين السّماء البيضاء والأرض المشقّقة ينفتح فراغ دون عوائق، مثل مكبّر صوت هائل، لا شيء يمكن أن يقف في وجه أمانيه لبلوغ مكّة.

كان الطّارقيّ قد انعزل خفية. وبدا لي تحت الشّمس المشرقة وهو جاثٍ فوق سجّادة ضيقة، صغيرًا وعملاقًا.

كان دون شكّ يعترف بعدم كماله وهو ساجد بتواضع،، لكنّه كان يرجو من الله أن يخصّه برعايته. يا له من كبرياء، أليس كذلك؟

بينما كنت أطوي كيس نومي تساءلت... ما الّذي يهمّ في الصّلاة، هل هو ما يُقال أو إسماع ما يُقال؟

لاحظ بعض المشاة غياب أبايغور. وعندما أشار دونالد إلى قامته الورعة من بعيد اتّخذ كلّ منهم هيئة مشجّعة وتفرّغ لانشغالاته طيّب الخاطر مطمئنًا.

- إنّهم مسرورون. كم يفرحهم أن يتّجه مسلم إلى واجباته الدّينية وسط الصّحراء. فولكلور محلّي. هذا ما وُعدوا به في الكتيب السّياحيّ. أحسنت يا وكالة السّفر! شكرًا...

انضمّت إليّ سيغولين. وتابعت نقدها اللاّذع متوجّهة إليّ فقط، قائلة بصوت قاطع:

- كلاّ، رغم ذلك، إذا ما فاجؤوني وأنا أصلّي فسأخيّب أملهم، بل الأسوأ من ذلك أنّي سأشعرهم بالعار!

تأملتها طويلاً. هل كنت سأجرؤ على الإفصاح لها بأنّ أستاذ الفلسفة همس في أذن الجيولوجيّ، قبل عشرين دقيقة عندما انضمّت إلى حلقة الفطور: «انتبه، ها هي الكاثوليكيّة!». وأعقب ملاحظته ضحك ساخر ينطوي على استعلاء وازدراء. أنا الجبان، غاص رأسي بين كتفيّ ومثّلت دور النّائم الذي لم يسمع شيئًا.

وتابعت سيغولين بإصرار:

- هل أبالغ؟

- لا، أنت على حقّ. في أوروبّا يتغاضى المثقّفون عن الإيمان لكنّهم يستخفّون به. إذ يعتبر الدّين عودة إلى ظهور الماضي. والإيمان معناه البقاء في زمن منقض، أمّا الإنكار فيعني أن تصبح عصريًّا.

- أيّ خلط هذا!... كأنّ التّقدّم يتأسّس على رفض التّسليم!

- هذا حكم مسبق يدفع بالّذي يليه. في الماضي، كان النّاس يؤمنون لأنّهم كانوا يُدفعون إلى الإيمان دفعا، أمّا اليوم فيشكّون للسّبب نفسه. وفي كلتا الحالتين يظنّون أنّهم يفكّرون بينما هم يردّدون آراء الجموع ويلوكون معتقداتهم، ويقبلون قناعات قد يرفضونها إن أعادوا التّفكير فيها.

وابتسمتْ راضية لأنّنا متفاهمان.

- أشعر في كثير من الأحيان بأنّي مضحكة وأنا أُشهر مسيحيّتي! مضحكة أو سخيفة... لا أدري، لكنّي أرى السّذاجة في عيون من يسمعني.

وانفجرت تضحك طَوْعًا.

- في النّهاية، لا أريد الشّكوى! فالإهانة لاتتعدّى حدّ السّخرية، وأنا أتفادى أن أكون الضّحيّة. ولن يرموا بي إلى الأسود على أيّ حال... لن يعلّقوني على عمود!

وغمغمتُ:

- من يعلم؟

حدّقت في وجهي. وتركتُها تتفحّصني وأنا مستغرق في تأمّل أبايغور.

- هل أنت مؤمن؟

- لا.

- هل كان عندك إيمان؟

- أبدًا.

- هل تتمنّى أن يكون عندك؟

راوغت حائرًا بين جواب يحمل الحقيقة وجواب يضع حدًّا لهذا النّقاش، لكنّ سيغولين كانت تنظر إليّ بتلك البراءة الّتي جعلتني أختار الصّدق.

- نعم ولا. نعم لأنني سأكون أقلّ خوفًا وأنا مؤمن، ولا لأنّ

ذلك سهل جدًّا.

- سهل جدًّا؟

- سهل جداً.

انبسط أبايغور حدّ الاختفاء. هل كانت روحه تلامس السّماء أسرع وهو يخفض جسمه هكذا على الأرض؟

أمّا سيغولين فكعادتها لم تتنازل عن الجدل.

- أنت مخطئ. ليس من السّهل أن تؤمن! وليس من السّهل أن تكون أعمالك في مستوى ما يفرضه الإيمان دائمًا. فحين تصبح مؤمنًا سيكون عليك من الواجبات أكثر بكثير ممّا لك من الامتيازات.

- ليس هذا ما عنيته.

- ممّ تخاف؟ وممّ سيقلّ خوفك لو كنت مؤمنًا؟

- دعينا نؤجّل الحديث عن ذلك عندما أستيقظ... بصراحة، جدل ميتافيزيقي في السّابعة صباحًا، هذا يتجاوز قدراتي.

ولامستْ وجهي بحنان الأمّ.

- أُعذرني.

وارتعشتُ قليلًا... انتابني على الفور إحساس بالارتباك: فعندما لامستني راحة يدها لم أتعرّف على خدّي. كان جافًّا، و عندما لمسته صدر صوت خاطف. وجسستُ فكّي: كان الوبر على ذقني قصيرًا، قاسيًا، شائكًا، فتوقّف مدّ أصابعي. لقد نمت لحيتي. يا له من شعور مقيت! ماذا يمكن أن أشبه؟

نهض أبايغور ولفّ سجّادة صلاته تحت إبطه. وعاد إلى المخيّم وهو يوزّع علينا التّحيّات.

سارع العالِمان نحوه وخرائطهما بأيديهما يستفسرانه عن مسار الرّحلة.

وتركتني سيغولين دون استئذان، فأمسكتُ كتفها وقد عبرت ذهني هذه الفكرة:

- اسألي نفسك هذا السّؤال: لماذا تزعجينهم أنت المسيحيّة أكثر منه هو المسلم؟

توقّفت، تمعن التّفكير.

- لعلّهم يكرهون المسيحيّة وليس الإسلام.

- في رأيي هم يجهلون الاثنين.

كان جان بيير وتوماس وأبايغور يتحدّثون مبتهجين مرحين بشيء لا أعرفه. وأغاظتني ألفتهم فصحت:

- إضافة إلى ازدراء المؤمن، هناك ازدراء المتوحّش البدائيّ.

- عفوًا؟

- في وسع أبايغور أن يمارس أيّ ديانة كانت، وسيكون هذا دائما مناسبا له! هذا ما تظنّه عقولنا الإيجابيّة! لمَ ننير ابن البلد؟ أيّ نفع في اقتلاعه من جذوره وإهدائه الإلحاد؟ ما حاجته إليه في هذه البيئة العدائيّة؟ في الواقع، في الواقع هم يقبلون الإيمان من أفريقيّ ويعدّونه أمرًا طبيعيًّا، ولكن أن يفعل ذلك إنسان أوروبي فهذا أمر مزعج لأنّهم يعتبرون الأوروبيّ متفوّقًا على

الأفريقيّ.

- أنت قاسٍ!

كان الثّلاثي أمامي يضحكون مقهقهين.

هل أعترف لها بأنّني كنت أكره المرح الّذي يجمع أبايغور والعالميْن وأنّ الغيرة قادتني إلى هذه العبارة الجاحدة من شدّة رغبتي في أن يتخلّى الطّارقيّ عن هذين الشّخصين ويتآلف معي؟ كان الاهتمام الّذي أكنّه لهذا الرّجل الأزرق أصدقَ من اهتمامهما به، لكن ألم يكن يرى ذلك؟

ودقّ دونالد ساعة الاجتماع.

ترك أبايغور الأستاذين وراح يحرّر الجِمال الّتي عقل قوائمها عشيّة الأمس.

وبدأت القافلة مسيرها.

كان ينبعث من المعسكر عمود رفيع من الدّخان. آخر أثر لمقامنا هناك.

بدأنا نمشي على نيّة الوصول إلى نبع ماء. كانت هذه الفكرة تضيء وجه أبايغور البدويّ الصّالح الّذي كانت حركته تنتظم من أجل ضرورتين اثنتين فحسب: المرعى للجِمال، والمياه للبشر. ودون شكّ كانت صفائح الوقود وأكياس الحبوب تسمح بالتّريّث. ومع ذلك، كان يجدر بخطّ مسير الرّحلة أن يحافظ على حكمة السّلف. وأثناء محاولتنا إنجاز رحلتنا حسب هذا المخطّط، كان جان بيير وتوماس قد أدركا هذا المنطق منذ بعض الوقت: هنا لا يمكن سلك

الدّرب الأقصر بين نقطة وأخرى بسبب المرتفعات والجفاف.

واحتفظ الطّارقيّ كعادته بصمته أثناء المسير. وبين الحين والآخر، كان يلتفت إليّ وابتسامته على شفتيه ليسألني عن حالي.

وكنت أنا المفتون بحنوّه أردّ عليه في كل مرة «جيّد!» رافعًا إبهامي علامة النّصر، فكان يضحك.

هل كان يجدر بي أن أعترف له بأنّني كنت أتعذّب هذا الصّباح؟ لا بد أنّه لاحظ ذلك، ولكن كيف؟ ورغم أنّي أصغرهم سنًّا، لم أكن في مؤخّرة المجموعة. ومع تباطئي، كنت أدور في المقدّمة متعرّجًا.

كانت الحرارة تشتدّ وتُثقل عليّ خطواتي، وكان العرق ينساب خطوطًا تُغرق ظهري، ولم أتمكّن من تبريد صدغيّ حتّى بمنديل مرطّب بماء الكولونيا. كانت ساقاي ترتجفان من أثر الشّدّ العضليّ. وتحوّل المسير إلى عذاب وشقاء.

كنت وقد أعياني التّعب أركّز النّظر في قوائم الجمل الرّشيقة الّتي تسبقني، تلك القوائم بلا حوافر، قويّة ومرنة. ولم أعد أفكّر، لم أعد أنظر إلى شيء، كنت أمضي قدمًا.

كنت أرى هذا المكان السّاكن يليه المشهد نفسه باستمرار، بينما كان أبايغور يعرف كيف يقرأ الصّحراء، فالرّمال تتحدّث إليه: آثار تحكي عن رحلات استكشافيّة سبقتنا، مخلّفات حيوانيّة جافّة أو أقلّ جفافًا تحدّد تاريخ عبور القوافل، وتظهر فوق الأرض بغتة آثار رفيعة مائجة تشير إلى مرور غزلان جرت من هنا.

وشاهدنا مرتفعات صخريّة.

وغمغمتُ وأنا أرغم أطرافي على الحفاظ على إيقاعها الناجع:

- أخيرًا هناك ظلّ!

وكانت تبزغ من بين كتل الصّخور الضّخمة أعشاب مثل شعيرات تحت إبط الجبل.

لماذا لا تسير السّاقان بسرعة الأعين؟ كانت السّلسلة الجبليّة تلوح وتتّضح أكثر، لكنّها تتراجع على نحو يسير ضدّ قوانا. وتوجّب علينا المسير بمشقّة ولوقت طويل قبل الوصول إليها.

- *رالاس*!

وما إن انضممت إلى المجموعة حتّى ألقيت حقيبتي منهكًا. ونادى أبايغور الأميركيّ.

فترجم دونالد وهو يقصدني:

- احتفظ بحقيبتك، يريد أبايغور أن يرينا شيئًا. وبين الارتياح بالتّوقّف والسّرور بحظوة مّا، آثرت الثّانية. وأعدتُ حمل حقيبتي على كتفيّ، وتبعت المرشدَيْن وأنا أتصبّب عرقًا.

تسلّقنا صخورًا وسلكنا دربًا منخفضًا، ثمّ توقّف أبايغور. وعلى بعد متر واحد إلى الأسفل، أشار إلى عين ماء، كانت المياه تسيل فيها نقيّة، رقراقة، عذبة يحيطها الحصى الأصفر.

وافترّ ثغره للماء الحيّ العميق المتلألئ كأنّه التقى بصديقة بعد غياب. وجلس القرفصاء برفق فوق المياه، ثمّ حثّني على الاقتراب. وتلافيًا لأيّ حركة خرقاء، تخلّصتُ من الحقيبة ووافيته إلى الضّفّة.

وغمرت أيدينا المياه.

كانت المياه تجري ثمينة بين أصابعنا مثل غبار الذّهب، كلّ قطرة تمثّل معجزة. وانحنى أبايغور ببطء، وجمع راحتيه على شكل كأس وشرب سعيدًا، ثمّ دعاني كي أحذو حذوه، وكذلك دعا دونالد وهو يتباهى بمزايا السّائل الرقراق.

شربتُ بنوع من الورع المقدّس يرافقني إحساس اكتشاف سرّ نفيس: إنّ الماء هديّة لا تُقَدَّر بثمن.

ولمحتُ بعد ارتوائي انعكاس وجهي ووجه أبايغور على سطح الماء. لم تربكني الصّورة بقدر ما كان صاحبها يثير انفعالي، لذلك تمكّنتُ من إمعان النّظر في ملامحه وقسماته. ورأيت حاجبين داكنَيْن مرسومَيْن، وقزحيّتين جامعتَيْن بين الخضرة والزّرقة، في لون النّهر.

وقف متّقدًا بالحماس، وأخذ حقيبتي ورفعها. وأشار بإيماءة إلى أنّه يجدها ثقيلة جدًّا.

وقال دونالد:

- يتساءل أبايغور لماذا حقيبتك ثقيلة جدًّا. وهو يراهن على أنّها تحتوي على أغراض لا لزوم لها.

اعترضتُ منزعجًا:

- إطلاقًا! ليس هناك سوى كلّ ما يلزم... فليتأكّد بنفسه!

وغمز دونالد بعينه ناحية أبايغور.

بدأ الطارقيّ يحلّ العقد الّتي تحيط بالحقيبة، ووسّع الفتحة، ثمّ أخرج حجرًا وهو يهمهم باستهجان.

- ولكن...

وخنقت الدّهشة صرختي. لم أكن أفهم...

وأخرج أبايغور حجرا ثانيا وثالثا ورابعا.

وبقيت فاغر الفم.

وإزاء وجهي العابس، انفجر أبايغور ودونالد ضاحكَين.

واهتزّ أبايغور طربًا، واعترف أنّه خبّأ هذا الصّباح هذه الحجارة بين أغراضي وهو ذاهب للصّلاة!

وطغى عليّ سروره فانفجرت ضاحكًا وهو ما ضاعف غبطته، ثمّ بدأ خطبة طويلة معقّدة لا يعرف كيف ينهي جملها والقهقهات تهزّه.

ونقل لي دونالد الخلاصة: أراد أبايغور أن يتأكّد من أنّ الأستاذ الفيلسوف يحمل في داخله الرّجل الأشدّ مرحا من بين كلّ الّذين عرفهم. وها هو يهزأ من شرودي العجيب منذ ولادتي، ويحرص على أن أحافظ على ساقيّ بعضلات قويّة مثل أمّي بطلة فرنسا.

وبدأ يضحك بصوت عال.

وأثناء هذه الحادثة الجامحة، اكتشفت فتوّة أبايغور سيّد الصّحراء الرّهيب. هو في الرّابعة والعشرين أو في الخامسة والعشرين... بينما كان يشرب أزاح عمامته متيحًا لي رؤية شعره الأسود الطّويل المجدول وخزرة عنقه المشدود. وضربني لكمات خفيفة على صدري مشيرًا إلى أنّني روّحت عن نفسه كثيرا، وأنّنا من هنا فصاعدا غدونا صديقين. ثمّ عدنا إلى المخيّم. وكنّا سنملأ القِرَبَ والصّفائح بعد الانتهاء من الغداء.

بعد الظهر، تركنا وراءنا السّلسلة الجبليّة وعبرنا صحراء ذات

مظهر جديد، أرضا قاسية مجدورة بالحصى الدّائريّ السّاقط من السّماء. تلّة هنا، مرتفع هناك، مثل براكين خامدة متناهية الصّغر، لكنّها لم تكن تلغي رتابة المنظر.

وفجأةً اضطرب أبايغور.

سأل دونالد:

- ماذا يجري؟

عضّ على شفته، وتقصّى الجوار كأنّ الدّنيا ضاقت به. وحاولنا أن نفهم ما كان يقلقه، لكن دون جدوى! بقيت الصحراء كتوما. وسألَنَا أن نتوقّف بصوت بذله كي يبدو متماسكًا، غير أنّ نبرته كانت تكشف اضطرابه.

لم أكن متأكّدًا، لكنّني كنت أخشى أن يكون قد لمح لصوص القوافل، لا بل أكثر من ذلك، لعلّه لمح أعداء مستعدّين لخطف الغرباء وقتلهم.

وشعر دونالد بالخطر فأصرّ على معرفة سبب انفعاله.

واكتفى أبايغور وهو صامت بالإمساك بكيس من القماش، أخذه من أوّل جمل، ثمّ توارى وراء المرتفع. وبعد خمس دقائق، عاد يرتدي حلّة سوداء تزيّن حوافّ قماشها الفاخر الزّخارف البديعة.

قال دونالد بإعجاب:

- أوه، أوه... ليطمئنّ بالنا، ها هو بلباسه الاحتفاليّ.

وطّب أبايغور ملابسه القديمة في الخرج الّذي علّقه على الجمل. كان يتجاهلنا على نحو متغطرس.

همستُ:

- لماذا فعل ذلك؟

وردّد دونالد:

- لماذا؟ من الأفضل لنا ألاّ نسأل. أشعر بأنّه قد يقتلني إن جازفت وسألته. فتصرّفه يدلّ على أنّه لن يحتمل أيّ سؤال أو تعليق.

وأمر أبايغور الجمل بالرّكوع. فنفّذ مكرهًا وهو يرغي. وتضامن معه رفيقاه الاثنان وقاما بالمثل. وعندما أقعت الدّابّة على الأرض، جلس أبايغور فوق السّرج، ثمّ ضغط بساقيه على عنقها وأمرها بالنّهوض.

وتربّع على عرش يرتفع ثلاثة أمتار عن الأرض، شامخًا، بهيًّا، إمبراطوريًّا، هو الّذي كان عادة يشدّ من عزيمتنا، ويدلّنا على أيّ اتّجاه نسلك وهو يبتسم، مشى في طريقه غير مكترث دون أيّ كلمة أو نظرة تجاهنا. كان يتقدّم مادًّا عنقه نحو الأفق. أضحى رجلًا آخر...

أمّا نحن فقد كنّا ننتقل في إثره جاهلين أيّ فكرة تبرّر سلوكه.

ولم يطل الأمر حتّى اكتشفنا السبب.

عند منعطف تلّ من الحجارة، سمعنا سيمفونيّة من رنين الأجراس الصّغيرة معلنة ظهور لوحة مدهشة: راعية ترعى قطيع ماعزها.

كان كلّ ما في المشهد الرّعويّ صغيرًا وساحرًا. لم تكن الرّاعية أكبر من طفلة على الرّغم من سنواتها العشرين، كانت تجلس وسط حيواناتها، وعندما رأتنا خفضت عينيها المكحّلتين. كانت أهدابها

الكثيفة ترمي بظلالها فوق بشرة ناعمة كالدّرّاق. تؤطّر وجهها اللّطيف النّاعم بشفاهه اللّؤلؤيّة جديلتان كثيفتان بلون الأبنوس، يا له من وجه مستدير ورهيف على نحو غريب. عند قدميها، كانت الماعز الصّغيرة الّتي لا تزيد قامتها على من ثلاثين سنتمترا قصيرة القوائم، دقيقة الخطم، تشبه اللّعبة أكثر ممّا تشبه الثّدييّات. وعندما مأمأت كاشفة عن نيرة وردية لبنيّة برّاقة، أربكني صياحها لكثرة ما كان ارتعاش صوتها الحادّ الضّعيف يذكّر برنين الأجراس الصّغيرة المشدود الّتي تزوّد بها الدّرّاجات الهوائيّة، وفي الحقيقة، إنّ الماعز لا تثغو، إنّها تضغب.

انتصب أبايغور فوق دابته ومرّ إلى الأمام عابسًا يصوّب نظرته إلى اللاّمتناهي، دون أن يولي الرّاعية اهتمامًا.

أمّا هي فكانت مستغرقة في رسم تخطّه على الأرض بغصن رفيع.

يا له من مشهد! تمتدّ الصّحراء بمساحات شاسعة من العزلة حولهما، مع ذلك، يتعالى الرّجل الطارقيّ والمرأة الطّارقيّة في الصّحراء كلاهما على الآخر.

غير أنّنا لم نرَ سوى ذلك، كانا يتظاهران بعدم رؤية أحدهما الآخر، وكلّ منهما يحرص بوضوح على تجاهل إعجابه بالآخر! إنّما يوحي له بذلك دون أن يتقدّم نحوه.

كبحنا أنا ودونالد رغبتنا في الضحك.

وبعد أن تركنا الرّاعية وقطيعها، حافظ أبايغور على مشيته الرّصينة المتعالية لمسافة كيلومترين أيضًا، ثمّ قرّر التّوقّف للاستراحة.

قفز عن ظهر جمله وتوارى خلف صخرة، ثمّ عاد مرتديا لباسه العاديّ كأنّ شيئًا لم يكن.

ولاح على محيّاه شيء من الجسارة، كما بدا مطعونًا، ما جعلنا نتوخّى الحيطة: «لا تعليق».

ثمّ تفرّقنا.

كان أبايغور يعدّ الشّاي منتشيًا وعيناه تائهتان. اللّقاء القصير يطول إلى أبعد من مجرّد لحظة عابرة، ويغذّي في داخله مشاعر عميقة تدفعه إلى التّنهّد بلذّة.

كنت وأنا أتطلّع إليه أسمع قصائد الصّحراء تتضارب في ذهني، تلك الأبيات الّتي قالها أحد رجال البدو لمحبوبته البعيدة: «أنت أجمل من نخلة طافحة بحلو التّمر، وأشجى من وعد بالغيث، وأكثر إشراقًا من بريق الثّلج في قلب الشّتاء. كلّ الرجال في جبال الهقّار يرنون إليك يا وردتي معجبين. يا قمري الأبيض، ابنة النّجمة الفريدة. يا جبلي الورديّ، خابيتي السّمراء. أيّتها الصّبيّة الطّارقيّة الزّرقاء».

يا لها من مناجاة بين شخصين تفتّت القلب! بعد أن متّعني المشهد، أثّر فيّ تأثيرا بالغا. من الواضح أنّ أبايغور المحتشم كان يغازل ذاك الحُسن. وبناء على الوتيرة الّتي تسير فيها قصّته، قد تلزمه شهور كي يقدر على نطق الكلمة الأولى، وسنة كي يخاطر بقبلة، وسنتان للزّواج حسب الأصول! وإذا استمرّ يجوب الصّحراء دون أن يراها إلّا بين الحين والحين، فإنّ قصّة حبّهما ستدوم.

إنّها قوّة البطء... وبدا لي أنّ أبايغور سيعرف الحبّ العظيم.

أمّا أنا، فخلافا له، كنت أفعل كلّ شيء بجنون، وأرغب بقدر ما أعشق. وقبل خمسة عشر شهرا، كنت قد انفصلت عن الفتاة الّتي عشت معها سبع سنوات. وحتّى أنسى ألم الفراق، ارتميت في أحضان غريبة. كنت وأنا أضاعف مغامراتي أشارك في علاقات فارغة تخلو من الالتزام والتّبعات. ولم يعد قلبي يخفق لأحد، لم أكن أنتظر شيئًا. وحين أتأمّل السّماء، لم أعد أرى أيّ وجه يسكنها.

ومرّة أخرى أيضًا، كان يبدو لي أبايغور الصّبور، الحالم، المتراخي، أكثر حكمة منّي.

كانت الصّحراء تدلّني على عيوبي، واحدا تلو الآخر.

(8)

- لماذا تلد الطّبيعة سمكة إن لم تكن قد خلقت المياه؟

كانت سيغولين تمشي حذوي في ساعات المسير الأخيرة قبل الوصول إلى المخيّم. وبدا الأفق يرتعش أمامنا من شدّة القيظ. مسحتُ جبيني ورمشت بأجفاني.

-عفوا؟

باغتني السّؤال كثيرا، وحرصا منّي على استدراكه تباطأت. فاستغلّت الظّرف ذبابة وحطّت على ذراعي. أعادت سيغولين السّؤال بوضوح:

- لماذا تلد الطّبيعة سمكة إن لم تكن قد خلقت المياه؟

أبعدتُ الذّبابة وأنا واقع في الحيرة. وغمغمتْ سيغولين تدعوني إلى استئناف المسير، ثمّ بدأتْ تشرح التّفاصيل بشكل موزون ومبالغ كأنّها أمام طفل أصمّ:

- خلقت الطّبيعة الكائنات الحيّة، جميع الناس يُجمعون على هذه النّقطة. لكن لماذا صنعتهم كثيري الأسئلة، توّاقين إلى العقلانيّة، بنّائي معارف، موسومين بالأخلاق؟ هل تهدف هذه الصّفات إلى إدخالنا في المحيط أو إقصائنا منه؟ عادة، لا تصنع الطّبيعة

شيئا دون فائدة. حين أُصغي إلى صاحبنا الجيولوجي وكذلك الفيزيائي، أعجب كثيرًا بشروحهما الضنينة. «القليل من العلم يُبعدك عن الله، والكثير منه يقرّبك إليه». إذا كانت الطّبيعة قد صنعت الأسماك، فذلك لأنّها أتقنت خلق المياه قبل ذلك. وإذن...

- وإذن؟

- إذا كانت تصنع حيوانات عاقلة مثلنا، فذلك لأنّ ثمّة معنى في الكون يجدر بنا إدراكه. إذن...

- إذن؟

- لسنا حدثا عرضيّا، ولم نأتِ من رمي الذّرّات العشوائيّ. بل خلافا لذلك، نحن نتاج مخطّط في غاية الذّكاء. إذن...

- إذن؟

- إذن، الله موجود.

وجدت نفسي مرتاحًا وقد أصبحت في أرض مألوفة. ولأنّي أمتهن الفلسفة، كنت أعرف كيف أحلّل هذه الألغاز وأجوبتها العديدة. ربّما وأنا في سنّ العشرين، لم «أدخل إلى الفلسفة» -كما ندخل إلى ديانة- إلّا لتأكيد تفكيري حول هذه المسألة.

كانت الذّبابة تتحرّك بين ساقيّ كأنّ شيئًا يجذبها. ابتسمتُ وأجبتُ سيغولين:

- أفهم ما ترمين إليه: أرى هنا جدلا يتعلّق بحقوق المؤلّف. هل خلق الإنسان المعنى أو أنّ خالقا آخر أي الله، سبقه؟ هل

الذّكاء الّذي يختصّ به الإنسان في الكون صادر عنه أو أنّ الله هو الذّي أورثه إياه؟ حسب مفكري اليوم، الإنسان منفرد، ولا مرجع له. وهو المنتج العقليّ الوحيد، ويعرّف نفسه بأنّه حارس المعنى وسط عالم عبثيّ.

- هل يمكن أن يكون الإنسان سمكة مرميّة في كون لا ماء فيه؟

- إذا أردت...

- سيموت إذن!

وصمتُّ مُدركًا مقصدها تمامًا. صحيح، إنّ الحداثيّين يجعلون الإنسان يحتضر، فعندما يُسندون إليه الذّكاء، يمدحونه، لكنّهم يحكمون عليه بوحدة نهائيّة. ويغدو هو الاستثناء: إنّه يفكّر في مُحيط لا يفكّر. وينفعل في إطار لا حسّ فيه، ويقتفي أثر الحقّ والظّلم في خواء غير أخلاقيّ. وينغلق على نفسه في الخارج! دون إمكانيّة للهروب! وهكذا فإنّ ذرّة الغبار النّجمية الّتي أصبحت إنسانًا، تغدو خطأً مؤلمًا.

كانت الذّبابة تحطّ على الأجزاء المكشوفة من جسمي، مُهتزّةً مُرتعشة فوق ذراعيّ وساقيّ وعنقي ووجهي. وتجدّ في امتصاص العرق المالح عن جلدي. كانت تعكّر صفوي.

وألحّت سيغولين:

- أليس نظام الكون وذكاؤه دليلًا على وجود الله؟

- هذا إثبات تقليديّ في الفلسفة. كان فولتير[1] يقول: «هذا

(1) فولتير (1694-1778): فيلسوف وكاتب فرنسي من عصر التنوير. (المترجمة).

الكون يحيّرني، وليس في وسعي التفكير في أنّ السّاعة موجودة ولا يوجد ساعاتيّ». والأمر بديهيّ، فإذا وجدتُ مصادفةً ساعة على هذا الدّرب، فسأفسّر لنفسي حقيقة وجودها على أنّها من صنع حِرَفيٍّ، لن أقول إنّ المصادفة خلقتها. والأمر نفسه فيما يخصّ الحياة وقوانينها وتعقيدها المتزايد، وقياسا على ذلك، سيكون لديّ الميل نفسه وأفترض وجود صائغ ماهر أنجز العمل. ولأنّ الإنسان يتبدّى مُفكّرًا، وأخلاقيًّا، وروحانيًّا، ستكون الأمور منسجمة إن تخيّلت أنّ هناك في الأساس إلهًا مُفكّرًا، أخلاقيًّا، روحانيًّا، بدلًا من تخيّل جلبة جزيئيّة أو خلط احتماليّ للخلايا.

- آه، أنت موافق...

- لا، ولا للحظة واحدة! إنّ القياس لا يمثّل برهانا. وثانيًا، يمكن أن يكون هناك نظام دون وجود إرادة: فالاصطفاء الطّبيعيّ لداروين يعلّمنا أنّ الأنواع المتكيّفة تبقى على قيد الحياة أمّا غير المتأقلمة مع المناخ فتموت، وباختصار، تنظّم الطّبيعة ذاتها بذاتها. وأخيرًا إنّ مفهوم الغائيّة[1] يبقى بالنسبة إليّ موضع شكّ لأنّه نابع من قناعةٍ شخصيّةٍ بحت: إذ كيف يُمكن التّأكّد من صحّة القول: «إنّ الإنسان هو هدف الكون»، والكون فضلًا عن ذلك، هل له هدف؟

- ماذا؟ ليس هناك أيّ هدف؟ خذ العين على سبيل المثال، فكّر في

(1) قسم من الميتافيزيقيا يزعم أن كل ما في الطبيعة وما يحدث فيها يتوجه إلى تحقيق غاية معينة بما فيها السلوك الإنساني. (المترجمة).

هذا التّكوين المتكامل. هل تصرّ على القول إنّها لم تكوّن لكي ترى؟

وتذكّرتُ أنّ سيغولين تمارس طبّ العيون.

- بالضّبط! أعترف بأنّها ترى، لكنّي لا أُؤكّد أنها كُوِّنت كي ترى.

- آه، هكذا؟ هل هي مصادفة أن تضمّ الشّبكيّة خمسةَ ملايينِ مخروطٍ وألفيْ مليونِ عصبيّةٍ تلتقط الإشارات الضّوئيّة وتحوّلها إلى إشارات كهروكيميائيّة؟ هل هي مصادفة أن تتوضّع العدستان والقرنيّة والعدسة البلّوريّة على مسافة مُحدّدة من الشّبكيّة كي تركّز فيها الأشعّة الضّوئيّة؟ هل هي مصادفة أن تحمل كرة العين هذه الأنظمة وتحميها بفضل مادّة مائيّة؟ هل هي مصادفة أن تقوم العديد من العضلات الصّغيرة بتحريكها معًا؟ هل هي مصادفة أن يُثبَّتَ عضوان متماثلان جنبًا إلى جنب ليسمحا لنا بالرّؤية بوضوح؟ هل هي مصادفة أن يكون عَصَبَا الرّؤية هذان موصوليْن بمنطقة في الدّماغ؟ هل هي مصادفة أن يمتلك دماغنا خلايا عصبيّة قادرة على معالجة هذه الأمواج العصبيّة؟ مصادفة! يبدو لي أنّ الإيمان بالمصادفة أكثر مشقّة من الإيمان بالله. حين نختار المصادفة بدلاً من كائنٍ أسمى، فإنّ احتمالات حدوث الأشياء وتزامن وقوعها وإمكانيّاتها تُورّطك في إيمان أعمى! وفي الواقع، لقد وقعت فريسة تطيّر المصادفة.

- قد أكون على خطأ، ولكنّ هذا لا يعني بالضّرورة أنّك على

صواب.

- يبقى الله أفضل تفسير معقول للكون.

- اسمعي الكلمات التي تستخدمينها: «أفضل تفسير معقول»، أنت تقبلين إذن أنّ هناك تفسيرات أخرى. إذا كان ثمة احتمالات عديدة، فليس هناك إلزام. لا شيء يُلزم.

وساد صمت.

وسرنا مائة متر ونحن نفكّر. كانت الشّمس قاسية مثل حجر الصوّان.

وأردفتُ:

- ثمّ إنّي عندما أرى إخفاقات الخلق: كموجات التّسونامي، والعواصف، والزّلازل، والأنواع الفانية، والعاهات المتنوّعة الّتي تُصيب الأحياء، والفيروسات المميتة أو البكتيريا القاتلة، أقول لنفسي إن الله بالنّسبة إلى حرفيّ ليس مُعلّمًا لكنّه متدرّب. يا لها من محاولات عقيمة!، كم من الكوارث الطّبيعيّة؟ انظري إلى التّضاريس: هذه الرّمال الّتي تحرقها الشّمس كانت قاع محيط، والوديان الّتي جرت فيها الأنهار اختفت اليوم، والجدران الصّخريّة، انبثقت من النّشاط البركانيّ، والصّدوع، نتجت عن تصادم الصّفيحات القاريّة... يا لها من فوضى في سبيل نتائج تافهة! لا علاقة للصّحراء بالمعجزات لأنّه لا يمكن العيش فيها...

تركتني الذّبابة وصار هدفها سيغولين التي كانت مُنشغلة البال

بخطبتي الطّويلة.

- ومع ذلك، سمعت أنّ الفلاسفة قدّموا إثباتات عن وجود الله.

- عدا ما كنت أثبت تهافته -أي البرهان بالغائيّة- مازالت ثلاثة براهين.

- آه، رغم كلّ شيء!

- أربعة، أربعون، أو أربعة آلاف، قلّما يهمّ يا سيغولين، إنّ كثرة عددها تدلّ على أنّ واحدا غير كافٍ.

- وما هي هذه البراهين؟

- البرهان بالإجماع العامّ: في كلّ زمان ومكان، آمن البشر بآلهة.

- صحيح تمامًا، وهل هذا يزعجك؟

- في كلّ زمان ومكان إلى عهد قريب، ظنّ البشر كذلك أنّ الشّمس تدور حول الأرض. إذن هناك أوهام يتقاسمونها وحماقات شعبيّة. إنّ الكمّ لا يصنع الحقيقة. والإجماع ليس دليلا على الحقيقة.

- وما هو البرهان الآخر؟

- البرهان الكونيّ: فليكون العالم في حالة حركة دائمة، لا بدّ من سبب جوهريّ، الله. وعلى هذا المقياس، بالرّجوع من سبب إلى سبب، نتقهقر إلى ما لانهاية له على نحو منحرف، إلّا إذا توقّفنا عند سبب أصليّ، أي سبب لا سبب له. ووحده الله الكلّيّ القدرة، والكلّيّ المعرفة، خارج المكان والزّمان يستطيع أن يولّد الكون وليس العدم.

- وهذا لا يقنعك؟

- هذا الادّعاء مزعزع، لأنّ من يتباهى بتطبيق السّببيّة يتخلّص من ورطة، ويلجأ إلى الاستعلاء فوق الوجود المادّي، إلى سبب لا وجود له ولا علاقة له بالموضوع، أي سبب من خارج العالم. وبالمناسبة، أريد أن أعيد طرح مبدأ السّببيّة على بساط البحث: هل هو كافٍ؟ فبهذا المبدأ، لن أتوصّل أبدًا إلى معرفة من جاء أوّلا: البيضة أم الدّجاجة.

- وآخر برهان؟

وندّت عنّي نبرة ساخرة:

- البرهان الوجوديّ: فعندما نعرّف الله بكلّ تلك الصّفات، فالنّتيجة مؤكّدة: إنّه موجود. وعندما نقول: «الله غير موجود»، فهذا تناقض. أمّا قول «الله موجود، فهذه نافلة».

وَعَبَسَتْ مُقْتَنِعَةً مُسبقًا.

- وإذن؟

- لن نستطيع الانتقال من مجال الأفكار إلى المجال الواقعيّ. فنحن نخلط نظامين، نظام الفكر ونظام الواقع. يُبَرْهَنُ على الوجودِ عن طريق التّجربة وليس بالمفاهيم والاستنتاج. وما ينجح داخل عقلي لا يعيش بالضّرورة خارجه. يبقى الله مسلّمة من المسلّمات، أو حلمًا، أو رغبة، أو وهمًا... حذار من اعتبار الرّغبة حقيقية.

ونظرتُ إلى سيغولين، كأنّ عشرين عامًا إضافيّة قد أثقلت

عليها. ثمّ ختمتُ قائلًا دون رأفة:

- إنّ الأبحاث النّظريّة الّتي ذكرتها مرفوضة. ولا يستطيع العقل البشريّ بقواه الوحيدة التّأكيد على وجود الله. فهذه «البراهين» الادّعائيّة ليست سوى حجج من أجل الله: لكن لا شيء يبرهن على وجوده.

- ولا شيء ينكر وجوده أيضًا.

ووافقتُ على هذه النّقطة بإيماءة من رأسي، ثمّ أوضحتُ:

- من يؤكّد، عليه تقديم البرهان. إذا كنت أدّعي وجود قنطورس[1]، فيجدر بي أن أدعم قضيّتي.

- من لا يؤيّد الإيمان ينبش دائمًا في الدّواعي.

- وكذلك من يريد أن يؤمن!

ورفعت سيغولين جبينها، وثبّتت نظرها في نظري وأعلنت جازمة:

- غياب البراهين لا يؤدّي إلى برهان الغياب.

ووصلنا إلى حصى متناثرة، وشقوق، وأخاديد، تعلن عن وادٍ قريب. وفي البعيد، كانت بعض الصّخور المنتصبة كالسّهام تؤكّد قربنا من الدّخول إلى جبال الهقّار.

توقّف أمامنا أبايغور في مكانه. وأشار بحركة واسعة بيده إلى منخفض في الصّخر والرّمال من أجل مُخيّمنا.

---

(1) مخلوق أسطوري من الميثولوجيا الإغريقية له جسد حصان ورأس إنسان. (المترجمة).

واستأنفتُ الحديث مع سيغولين.

- أنت على حقّ. الصّفر في كلّ مكان. الله ليس موجودًا إلّا في شكل سؤال. ولا بدّ أنّ كلّ إنسان قد تساءل يوما إن كان الله موجودا، وكلّ واحد يجيب على هواه. الشكّ في موضوع الله أبسط دليل على الحقيقة الإلهيّة!

وابتسمتْ وهي تُخرج مطرتها، وظلّت تشربُ ببطء الماءَ الّذي عبّأَتْهُ من النّبع. فجلستُ وفعلتُ مثلها.

وبعد أن مسحت شفتيها، استعادت لونها وبدت كأنّها استعادت هدوءها. وقالت:

- مسألة الله هذه الّتي تسكننا هي أكثر من سؤال: إنّها حافز، ونداء. إذ لا يمكن أن نبحث عن شيء إلّا إذا عرفنا أنّ علينا البحث عنه. «لم تكن لتبحث عنّي إن لم يسبق لك أن وجدتني!» ووقفتْ هادئة، ووجّهت إليّ إشارة وداع وراحت تبحث لنفسها عن مكان في الرّمال.

وأغرق المساءُ الأرض في لون أحمر قاتم.

«لم تكن لتبحث عنّي إن لم يسبق لك أن وجدتني».

وكنت قد كتمتُ صوتي حتّى لا أردّ بردّ سيثقل عليها.

أين كان هذا الإله؟ يظلّ غير مرئي منذ خلقه المزعوم. والطّبيعة لا تتحدّث عنه ولا هي تتحدّث لصالحه. وليس أمام ناظريّ سوى كون مرئيّ يبقى صانعه غير مرئي.

وشيئًا فشيئًا، اشتبكت السّماء بالأرض وغمرتها بالظّلام. كانت

حوافّ الجبال تتمطّى باطّراد وتتماهى بارتفاعاتها وقممها ونتوءاتها.

لا بالّتأكيد، الله لم يكن هنا.

لو أراد الله أن أعرفه لتصرّف بشكل مختلف، أليس كذلك؟

الإنسان يبحث عن الله. ما قد يزعزعني هو أنّ الله هو الّذي يبحث عن الإنسان، الله هو الذي يلاحقني...

ولم أره قطّ غير ذلك...

وعلى عكس ما كانت تلمّح إليه سيغولين، لم أكن أبحث عن الله. وقفتُ على قدميّ، ونظرتُ في الجوار وأنا أحسّ بفراغه الهائل الرّهيب.

وأنهيت كلامي بصوت مرتفع متحدّيًا الجبال:- إذا كان يبحث عني، فَلْيَجدْني!

وفي تلك اللّحظة، كيف كان يمكنني أن أتخيّل أنّ الله كان يسمعني وأنّه سيجيبني بعد بضعة أيّام؟

(9)

كان النّوم يجافيني.

يرتاح رفاقي. والجبل صامت. والنّجوم المعلّقة في الظّلام هادئة، ولا مبالية. لقد توقّف الزمن.

كنت مدثّرًا داخل كيس نومي، مثل يرقة داخل شرنقتها لا أذرع لها ولا أرجل، أتقلّب وأتقلّب، والعرق المتصبّب من رأسي يبلّل الوسادة الرّغويّة النّاعمة الملتصقة بالأرض مباشرة.

وإلى يساري، أنوف تطلق الشّخير المتسارع.

آه، كم كنت أمقتهم لأنّهم نيام! وإن لم أكن أمقت نفسي على سهري... ففي داخلي غيظ وقلق.

«كيف سأمشي غدًا إن لم أستردّ قواي؟»

ورغم ذلك عاودتني حالاتُ أرقي، انقطعت قبل أشهر خلت...

وابتسمتُ للقمر.

يا لها من ذكرى جميلة، هذا الشّفاء: عشرون عامًا من اللّيالي البيضاء قد اختفت مثل البرق!

منذ الحادية عشرة من عمري وأنا أعاني من عدم القدرة على الاستسلام للنّوم. وحتّى إن كنت مُنهكًا مرهقَ الجسم من احتفال

أو مباراة للرّقبي، أو من جولة على الدّرّاجة الهوائيّة، كنت أظلّ مفتوح العينين. وحتّى إن ذهبت إلى السّرير منذ العاشرة مساء، كنت أقبع حتّى الثّانية صباحًا في انتظار النّوم. وخلافًا لما كنت آمله، حتّى حياة العاشق لم تحلّ المشكلة. ولئن كانت السّعادة والإثارة ولواعج الحبّ المتعاقبة حتّى الوصول إلى النّشوة تُحدث شعورًا فائقًا بالرّاحة، فإنّني كنت أبقى مستيقظًا أحتضن شريكتي، أسمع تنفّسها يخفت، يتباطأ، ثمّ يتّخذ إيقاعه اللّيلي، وأغمرها بعناق كان يبدو لي في البداية ممتعًا ثمّ لا ينتهي، وحين تدوم المتعة طويلًا تتحوّل إلى عذاب. وكنت أصبر دون جدوى ثمّ اعتدت أن أنسلّ من الفراش باحتراز وأذهب عاريًا لأجلس أمام طاولة أقرأ أو أكتب أو أسمع الموسيقى.

لست أدري إن كان السّهاد يضعفني، لكن تأثيره العصبيّ كان ينغّص عيشي.

لم أفرح يومًا بانتهاء النّهار، بل إنّي لم أفرح يوما بالارتماء في السّرير. وما كان يسعد الكثير من النّاس كإسدال السّتائر، والتّثاؤب، والهرهرة مثل قطّ، والتّكوّر داخل فراش وثير، والتّربيت على ريش الوسادة، وتقبيل الحبيب وتمنّي ليلة هانئة له، كان يعني لي العذاب. لقد جرّبت علاجات جدّتي، كأن أحصي الخراف، وأتلو القصائد، وأسترجع ذكريات بهيجة، وآخذ حمّامًا باردًا، وأشرب الحليب، أو البيرة، أو المناقيع، لكن دون أيّ فائدة تُذكر! وحين كنت أخاطر بشراء الحبوب المنوّمة من الصّيدليّة، لم تكن تُفلح إلّا بإنعاسي في النّهار التّالي وليس في اللّيل.

اقترح عليّ صديق: «تذكّر الوقت الّذي بدأت فيه متاعب النّوم، ثمّ ابحث حول هذا الحدث وسوف ينكشف لك السّبب». وقد استجبت لنصيحته.

بدأ الأرق يجتاحني عندما مات جدّي، أحبّ رجل إليّ في طفولتي. كان عملاقا لطيفا، حكيما، خفيف الظّلّ، يقضي أيّامه منحنيًا فوق طاولة حرفته يرصّع الجواهر. وكانت كلماته نادرة دائمًا وغنيّة بالمعاني مثل صمته... لكل شيء ثقله الصّحيح بالنسبة إليه. ومنذ السّادسة عشرة من عمره وهو يعمل بين أدواته: المبارد، والشّمع، وحبيبات الماس، وقضيب اللّحام، والملاقط. وبنشاطه الدّؤوب قدّم لزوجته حياة رغيدة ووفّر لبناته تعليمًا جيّدًا. كان يمتلك سيّارة أميركيّة فارهة قلّما يستعملها وبيتًا في الرّيف يذهب إليه لمدّة أسبوعين في الصّيف. كان يعمل باستمرار، ولم أره قطّ ينقطع عن العمل إلّا ليتسلّى معنا نحن أحفاده أو مع الحيوانات الّتي كان يصحبها زبائنه أحيانا. وحينذاك، كان ذلك الرّجل الجدّيّ المسؤول يغادر مقعده ويختبئ، ويبتكر الألعاب، ويثير المفاجآت، ويركض على أربعة، ويضحك إلى أن ينقلب على ظهره. لكنّ أزمةً قلبيّةً قتلته وهو في التّاسعة والخمسين.

أثناء فترة من الوقت، عملًا بنصائح صديقي، أخذت أحلّل الصّور الّتي كانت تدور حول هذه المأساة. وذات صباح، بينما كنت أدخل غرفة الحمّام، اخترقتني عبارة مثل سهم: «جدّك قد نام إلى الأبد». وسرعان ما فهمتُ أنّي قضيت عشرين عاما سجينا لهذه الجملة «لقد نام جدّك إلى الأبد». إنّ النّوم يعادل الموت! أن تنام معناه

أن تجازف بألاّ تستيقظ مرّة أخرى أبدًا..أيّ شخصٍ راشدٍ وسوس لي بهذه الكناية المفزعة معتقدا أنّه قد أحسن صنعا؟ وما أهمّيّة ذلك الآن؟ إنّه لم يشكّ في أنّه سيحكم عليّ لعُقودٍ بليالي لا يُغمَض لي فيها جفن.

ما إن وعيت بهذا القول الأصيل والفاجع حتّى ارتحت، كسماء غسلها المطر. وفي المساء ذاته نمتُ بسلام. وفي اليوم التّالي أيضًا. ومنذ ذلك الحين شُفيت! بل اكتشفت لذّة النّعاس.

غير أنّني في تلك اللّيلة في قلب الصّحراء، على الرّغم من الإنهاك بسبب الحرارة والمسير، وعلى الرّغم من الرّزّ الخبيص الّذي كان يُثقل على معدتي، لم أكن أجد طريقًا إلى السّبات.

كان يتربّص بي خطر ما، أُحسّ بتهديد خفيّ... نعم، ثمّة مُعتدٍ مجهول كامن في الظّلمة ينتظر أن ينقضّ عليّ.

وانتفضت جالسًا، وأنا أرتجف من رأسي حتّى أخمص قدميّ.

أحدث صوتُ تجعّد القماش جلبةً رهيبة. سيستيقظ الجميع الآن ويطردون العدوّ...

وبعد ثلاثين ثانية، استنتجت من سكون الأجساد وشخيرها المستمرّ أنّني لم أُزعج أحدًا.

حدّقت في المكان المحيط بي. لا شيء كان يتحرّك فوق الأرض عديمة اللّون، لا أفعى ولا عقرب ولا قارض. لم يكن هناك أيّ متوحّش يضع سكّينًا بين أسنانه ويبرز من وراء الصّخور. كانت مُخيّلتي قد خلقت الخطر.

ومع ذلك، ثمّة شيء ظَلَّ يعكّر صفوي...

أخرجت ذراعيّ من تحت اللّحاف كي أبرّدهما.

كانت السّماء من فوقي بهيّة، سنيّة، سامية، مُرصّعة بالنّجوم المتلألئة، تُبدي مزاجًا مختلفا عن مزاجي. كانت منفصلة عنّي، وأنا مازلت بعوضة تافهة تتخبّط في قاع حفرة رمليّة.

أحسست بالشوق إلى وطني يتدفّق ويختطفني، شعور بالاغتراب يجتاحني كالأمواج، ويحرمني من الارتياح العاديّ. لا شيء مألوف من حولي: كنت قد غادرت وطني، وتهالكت حياتي اليوميّة وطقوسها أيضًا. وفقدت المرتفعات الجبليّة المظلمة ملامحها، والأغراض المستعملة كالسّكّين، والحقيبة، والمصابيح، والكتب لم تكن تفيدني بشيء، تداعت معالمي حتّى آخرها. وساد كلّ ما هو غير مألوف. وشعرت بأنّني عارٍ، ومنفيّ، ووحيد، ولا ملجأ لي.

لكن كيف بوسعي أن آلف المجهول؟ كيف بوسعي أن أردّه إلى المألوف؟

عبر شهاب أمام مجموعة الجوزاء. وتسارع الهلع. كان صدغاي يكتويان. على أيّ مسافة كانت تحدث هذه الظّاهرة؟ إنّها مسافة تتجاوز عقلي... مسافة تجعلني ضئيلًا، مثيرًا للشّفقة. كنت مطمورًا في زاوية من الكون، من كون في تمدّد دائم، كون عمره أربعة عشر مليار سنة سيبقى موجودًا أبعد من إدراكي. وحتّى إن كان ما أراه هائلا، فإنّه متناهي الصّغر: كواكب تُخفي أُخرى، ومجرّات تُضاف إلى مجرّات، ومليارات الأنظمة تشغل اللّامتناهي الّذي لا يمكن بلوغه.

كنت أرقد، ذرّة غبار وسط كونٍ شاسع، ذرّة غبار رماديّة عقيمة، ذرّة غبار زمنيّة تافهة.

ووجف قلبي داخل صدري. وسمعته يدقّ على باب قفصي الصّدريّ. كان يريد الفرار...

من أنا؟ شمعة ساهرة في قلب الظّلام ستُخمدها الرّيح؟ يا للمهزلة! الآن بوسعي الصّراخ «أنا موجود» لكنّ تأكيدي يتلبّسه الرّعب، إذ أنّ في داخلي سَوْرَة تصيح وتثور، لن أكون موجودًا إلى الأبد. لست سوى «لحظة» بين لا نهايتين، الأزليّة قبلي والأبديّة بعدي. لست أكثر من قطعة حياة بين عدمين، العدم الّذي سبقني والعدم الّذي سيأتي بعدي. وحتّى إن تركتني الأبديّة وشأني فإنّ هذين العدمين يقضمانني.

وعندما أقول «أنا موجود» فهذا يعني «لن أكون موجودًا بعد ذلك». وكلمة حيّ ليست سوى المرادف الحقيقي لكلمة فانٍ. يصبح كبريائي هو عوزي، وقوّتي تمسي نقصاني، ويمتزج الفخر بالخوف. من الّذي وضعني هنا، فوق هذه الحصاة المستديرة؟ لأيّ هدف؟ ولماذا لمدّةٍ قصيرة جدًّا؟

أنا لست شيئًا، أو بالأحرى، أنا شبه شيء. «شبه»، هذا هو وضعي، شبه كائن، شبه عدمي، لا هذا ولا ذاك، لكنّي قَلَقٌ هجين فحسب.

يبسط الكون سلطته أمام ناظريّ، وعوض أن يأسرني بجماله، فإنّه يسحقني. أنا مصلوب حتّى الحياة. أشعر بالدّوار. أتضاءل

بمواجهته. أنا أكون، ومع ذلك، أنا موعود بألّا أكون. إنّي لا أفعل شيئًا سوى العبور. ينكشف وجودي منتهيًا، مكتوبًا بين حدثين عبثيّين، ولادتي وموتي. إنّي في انتظار الفراق، فراق قاسٍ لا عودة منه: فراق عن العالم، فراق عن أقربائي، فراق عن ذاتي وانقطاع. ليس لديّ سوى يقين واحد، هو أنّني سأفقد كلّ شيء.

صوت في داخلي يقول هازئًا: «افرح! فخوفك من الموت يمثّل الإثبات بأنّك على قيد الحياة! ومادمتَ تفكّر في أنّك لن تكون شيئًا، فأنت ما تزال موجودًا. لكن إن توقّفتَ عن التفكير في ذلك...».

الموت، ليس بإمكاني تصوّره. هل هو السّقوط؟ أو الظّلام؟ أو الصّمت؟ كلّ هذا محسوس جدًّا... هل هو الفراغ؟ كم يلزمنا من الامتلاء حتّى نكون قادرين على الإمساك بالفراغ؟ هل هو توقّف الزّمن؟ ماذا يكون الزّمن عندما لا يُعاش؟ ... أجهل ذلك... حين نُفكّر في اللّاشيء معناه لا نفكّر في شيء. لا يستقيم أمامي أيّ تمثّل ولا تصوّر، فكَيْ يتصوّر المرء شيئًا ما، عليه أن يبقى واعيًا. لكنّني لن أكون واعيًا.

هأنذا غارق في عرقي يجذبني القلق خارج العالم. لماذا هذه الحياة محدودة وهذا الموت لا حدّ له؟ تهزّ جسدي موجات من الهلع. وقد جفّ لساني. وقلبي يخفق يكاد يتوقّف. سأصرخ.

- إيرريك؟

أجفلتُ. كان ظلّ أبايغور الأزرق على يساري.

لامستْ يدُه كتفي برقّة.

ماذا لاحظ من اضطرابي؟ دون أن يبدو أنّه قد لاحظ شيئًا، أشار إليّ كي أتبعه. فخرجت من كيس نومي سعيدًا.

مشينا عشرين مترا إلى منطقة يتكاثف فيها الدّغل والعوسج. رفض أن نجلس فيها. وهناك توقّف وأشار بإصبعه إلى نتوء في الرّمال.

استغرقتُ دقيقة لتعتاد عيناي على الظّلمة، ثمّ ميّزتُ أفعى بقرنين تهضم سحليّة ابتلعتها، تتدلّى خارج فمها القوائم الخلفيّة اليابسة ومعها الذّيل.

أفهمني أبايغور بصوت خافت، أنّ الأفاعي تكثر بسبب غدائر المياه الصّغيرة الّتي تجذب فرائسها من قوارض وعقارب.

وأكّدت كلامَه خشخشةٌ. تراجعت أفعى لتختفي في مخبأ بين الحجارة، وتحرّكت متموّجة جانبيّا تاركة فوق الرّمال آثارًا ملتوية. وغير بعيد عنّا، أشار أبايغور إلى رأس مثلّث له بؤبؤان شاقوليّان.

وارتجفتُ. كنّا ننام بالقرب من أحد أعشاش الزّواحف وإن لم يكن سمّها مميتًا فإنّه قد ينخر الأعضاء، أو يدمّر أجزاء من الجلد، أو يخرّب الجهاز العصبيّ.

وهمستُ:

– ما العمل؟

حسب تكهّنات دونالد، توصّلنا أنا والطارقيّ إلى التّفاهم دون لغة مشتركة. وأجابني:

– عندما تبدأ الشّمس بالشّروق، تظهر الأفاعي كي تشرب النّدى

عن الأجسام. إنّ الفجر يحمل معه أقصى المخاطر.

وأخرج من جرابه المشدود على وسطه كيسًا صغيرًا. فتحه وأعطاني دقيقًا لأشمّه. إنّه كبريت.

وشرح لي بأربع حركات أنّه يجدر بنا رسم خطّ حماية حول النّائمين كي نُبعد المعتدين.

وبينما كنّا ندقّق النّظر حيث نضع أقدامنا، ونرقب تحرّكات الزّواحف، بدأنا نبني هذا الحصن المسطّح الغريب من نوعه.

نبّهتني مرارًا أصوات طقطقة، وأرعبتني تحرّكات خاطفة داخل أيك الشّجيرات.

كم هو مُريح أن تخاف خصمًا ببساطة! وها قد عرفتُ الخطر. لقد خلّصني أبايغور من خوف لا سبب له. لا شكّ في أنّ رجل الصّحراء كان يعرف أنّ الخوف يغطّي القلق حين يمنحه موضوعا مُحدّدًا.

(10)

نسير منذ يومين متقدّمين في الأتاكور، المنطقة الأعلى والأبرز في جبال الهقّار.

تلا الانبهار بما هو أفقيّ اندهاش بالعموديّ. في كلّ لحظة كانت تظهر قمم جديدة ومجانق حجريّة ووهاد أخرى.

عبرنا تحت شمسٍ حارقةٍ الورشةَ الّتي عملت فيها الطّبيعة عندما كانت فتيّةً نزقةً وبدائيّة. كانت ترفع بقوّتها الطبقات السطحيّة للرمل ثمّ تبصقها حممًا بملايين الأطنان. وكانت وهي تمسك بهذه المادّة المستعرة وتصبّها في كلّ مكان، تجوب قمم الجبال، والأبراج، والذُرى، والطيّات، والروابي، والتلال، والمخاريط، والأقواس، والفجوات، والتصدّعات، والقبّعات. كانت منتشيةً في ذروة الهيجان تختبر موهبتها في جسد الصحراء، تشعّ حينًا وتخمل حينًا، لكنّها تظلّ خلاّقةً على الدّوام.

في ذلك الزّمان، لم يكن هناك بشر يمتدحون عملها. فقد خلقتهم فيما بعد. لكن ينبغي الإقرار بأنّها لم تعد عابئةً بصنائعها، فصارت ورشة عملها مهجورةً على ما يبدو. لقد ظلّ انجراف المياه وعصف الرياح طوال قرون من الزّمن يحجب تلك المنحوتات العملاقة، وينتزع منها قوّتها المتوعّدة حتى غدت مجرّد صورة غائمة.

واليوم بدأت تعمّ الفوضى. تفتّتتْ بعض صخور الجبل. وصارت تقطع الطريق أكوامٌ من الركام، وكتل حجريّة ضخمة تعرقل المسارات. وهكذا تحوّلت التّحفة الرّائعة إلى آثار دارسة.

من حينٍ إلى آخر، تتضاءل الفوضى لتتيح لنا رؤية القمّة واضحةً، باستدارتها، وتعرّجات الدرب المشوقة، ولكن في أغلب الأوقات، نجدنا نتجنّب ما يعترضنا، أو نتخطّاه، أو نتسلّقه.

وبين هذا الكمّ المفرط من النّتوءات والبروزات، كانت النّجود الطّويلة تُنهك قوانا، فالحرّ شديد، وهي تخلو من الأشجار والظّلّ، مُعادية لكلّ حياة.

ثمّ وصلنا إلى المنحدرات الأنبوبيّة ذات الجدران المحفورة بالتّجاويف والسّطوح المتآكلة بالنّخور.

كان توماس الجيولوجيّ على حدود النشوة، وكأنّه هاوٍ للفنون تُرِكَ في متحف الفاتيكان... لا يتعب، يختال يمينًا ويسارًا، يميل على الأشياء، يلتقطها، يعلّق عليها، يصنّفها، يحلّلها، ويقارن بينها، بل أكثر من ذلك، لقد أصبح جامع كريستال: ولئن كان الحذر قد أحجمه في الأيّام الأولى عن زيادة حمولته، فإنّ صائد المعادن لم يكن يقاوم متعة جلب أنواع مختلفة من الكوارتز.

وعندما ثقُلت حقيبته، لم يَفُتْنَا أنا وأبايغور أن نتبادل الغمز، بل أن نقهقه ضاحكين. فتوماس يعذّب نفسه طَوْعًا، بالمزحة ذاتها الّتي جعلني الطّارقيّ ضحيّتها عندما دسّ الحجارة في أمتعتي.

كان ما يكتشفه خاصّة يثير حماسنا كصخور الخفّان الخشنة

الأردوازيّة اللّون[1] والصفراء والورديّة أيضًا، ولا سيّما تلك الحجارة الفريدة الرنّانة وكأنّها مُفرغة من الداخل، وصخور الفونوليت البركانيّة المخضرّة على شكل طبلات رديئة الصّنع، حتى إنّ بعضها ابيضّ لطول ما تعرّضت للهواء.

وعند الغسق، تحوّل المنظر البانوراميّ إلى كابوس. وتحت أنواره الخابية قبل أن يُخمدها اللّيل، تغيّرت لبضع دقائق طبيعة التضاريس: فبدت من الجانب كوحوش فوق الصّخور المتداعية، أو مثل عملاق أسطوريّ مضرّج بالجروح، أو هياكل لهراقلة طُعنت بضربة سيف، أو لِمَرَدَةٍ برؤوس مُحدّبة، أو جلود مخدوشة تتكاثر فيها الوذمات والدّمامل والبثور...

ثمّ اجتاحت الظّلمة هذا المستشفى المليء بالأفواه المكسورة. ولبسنا في العتمة القفّازات والقبّعات والسّترات الواقية كي نلتفّ حول نار رحيمة. أيّ تناقض هذا مع حرارة النّهار الخانقة! لقد واجهنا في أربع وعشرين ساعةً الصّيف والشّتاء تباعًا.

كان ذاك الصّباحُ آخرَ صباح في حياتي القديمة ولم أكن قد عرفت ذلك بعد.

مرّ الليل عليّ كأنّ طيرًا قد لامسني، واستيقظت نشيطًا مستعدًّا في قلب الوادي الّذي نصبنا خيامنا فيه.

وهذه المرّة، بدت إقامتنا المؤقّتة في هذا المعسكر أقصرَ من المعتاد.

---

(١) صخر متحول تشكل تحت ضغط وحرارة عاليين رمادي اللون على الأغلب يستخدم لبناء الأسقف في أوروبا. (المترجمة)

كنّا عازمين على تسلّق جبل تاهات[1] ، لنقيم في أعلى قمة بجبال الهقّار، إذ ترتفع ثلاثة آلاف متر.

ولمّا كان المعسكر قاعدتنا إلى الغد، استغلّ بعضنا ذلك لإعفائهم من الرّحلة، متذرّعين بألم في المفاصل، أو بدمامل مائيّة في الأقدام، أو بأعمدة فقريّة متهيّجة، وكلّ ذلك يتطلّب الرّاحة. أخبرني جيرار أنّه لن يشارك بالتّسلّق، وحين رأيته يبتلع عدّة أنواع من الأدوية على عجل، أدركت أنّ مشاكل صحيّة كان يحاول أن يُخفيها عنا تحرمه شيئًا من حرّيّته. وبعد أن تمنّى لي مسيرًا طيّبًا، انزوى مجدّدًا فوق ربوة. يا له من طبع غريب! أحببتُ هذا الرّجل كثيرًا، لكنّه لم يكن يتيح لي الفرصة لمساعدته. فمن شدّة كرمه، أهداني هذه الرّحلة الّتي لم أكن أمتلك الإمكانيّات لدفع نفقاتها. ومع ذلك، كان يعطيني انطباعًا بأنّه يقوم بها من دوني، وحيدًا، شبهَ صامتٍ، ومنطويًا على ذاته، يميل إلى النّقد السّاخر للآخرين. لقد كان يحيّرني. إنّه يعاني دون شكّ من نوع من الخجل يتدرّع به رافعًا جدرانًا يخبّئ وراءها طبعًا حادًّا على الأغلب... وهذا المزيج من الحماس والتّحفّظ كان يجعله بالنّسبة إليّ لُغزًا، أمّا بالنّسبة إلى زملائي، فلقد حسموا أمرهم تجاهه بإعلانهم أنّه بغيض، عدا سيغولين التي كانت تأبى أن تغتابه وتبدو متأثّرة بسحره كمحارب قديم.

قال لي أبايغور إنّه سيحرس المسافرين المتعبين والمخيّم والجِمال.

واستنتجت من سيمائه أنّه كان يعتبر الرّغبة في ارتقاء جبل تاهات

(1) جبل بركاني يضم أعلى قمة في الجزائر 3303م. عثر فيه على رسومات ونقوش تعود لـ8000 ق.م. (المترجمة).

عبثًا. فما جدوى ذلك؟ ماذا هناك لنبحث عنه؟ لنقطفه؟ لنشربه؟ لا شيء... لم يكن يبرّر جهدًا كهذا، وكان فضولنا يبدو له طيشًا أوروبّيًا.

إنّ تلك المرتفعات الّتي تتجنّبها القوافل إذ تسمّيها بلاد العطش والخوف، كان الطّارقيّ يحسن التّغلغل فيها، ولكن هيهات أن يغزوها أو يروّضها... وهو علاوة على ذلك، بخلاف السّيّاح، لم يكن يهتمّ بالأرقام القياسيّة ولا بالمنافسة، ولم يكن يتباهى في أيّ لحظة أمام بني قومه بأنّه «ذهب إلى هناك»!

كنت أريده أن أوبّخه، وأن أشيد أمامه بالمغامرة، وأن أعده بأنّه حالما يصل إلى الأعلى سيرى بلاده بعين الله.

وفي اللّحظة الّتي كنت أنوي فيها أن أنهره، كان يُحدّق في نسر يحوم في سمت السّماء فوق الوادي تمامًا. وكان عنقه يدور ببطء مع تحليق الطائر المرن، متّحدًا به. فأخافني ذاك التّركيز الّذي كنت ألمحه يرتسم في حدقتيْ أبايغور الحائلتين. وراودني إحساس بأنّ هناك خيطا غير مرئيّ كان يربطه بالطّير الجارح، فبينهما خيط مشدود، وخفيّ. وكان يستخدم عينيْ الحيوان ليدقّق النّظر في ملجئنا وما حوله.

رحلنا ستّة أشخاص يتقدّمنا دونالد. واتّفقنا بالإجماع على سَلْكِ الطّريقِ الأطول، إذ كنّا نصبو إلى النزهة أكثر من بلوغ القمّة. ولم يكن يرتسم أيّ درب بوضوح. كأنّنا كنّا نمشي في اتّجاهات وسط الصّخور وأكوام الحجارة من أجل بلوغ القمّة من الجرف الأيسر.

وبعد أن تخلّصت من حقيبتي، شعرت بالرّاحة كأنّني في إجازة. واستعدتُ خفّتي، إذ لم أكن أرتدي سوى قميص بولو وشورت

وحذاء رياضيّ للتّسلّق، وعلّقت على حزامي مشروبات منعشة.

ومع كلّ خطوة نحو الأعلى كنّا نحرز انتصارًا. ويغدو كلّ شيء عظيمًا. ونرى الأرض ومرتفعاتها المتورّمة إلى اللّانهاية. كانت الجبال تلوح في البعيد مستريحة فوق أرض مسطّحة، مُنهكة منذ آلاف السّنين وقد حطّت هنا بعد أن قُذف بها من الأعماق السّحيقة للكوكب. إنّ للمرتفعات هدوءا لم يكن يظهر عن قرب عندما كنّا نواجه خليط الأنقاض والصّدوع الحادّة والأبراج المقوّضة.

كنّا نجتاز أبوابًا تقودنا نحو السّماء.

لم نعد نفترق توماس وأنا. كنّا في انسجام تامّ، تهتزّ مشاعرنا معًا. تلوح لنا قمم مُخطّطة بالنّتوءات والشّقوق تبدو كحلوى «الألف ورقة» الفاخرة، وتنفتح صخور رمليّة تارة ومتآكلة جوفاء تارة أخرى. كان توماس يشير إلى الجروف الموسيقيّة المكوّنة من صخور الفونوليت والريوليت[1] البركانّي الرّنّان. وألفيت نفسي فجأة أسمع صداها وأحلم بأنّ الرّيح تصفّر في هذه الآلة الموسيقيّة العملاقة وتقدّم لنا هذه الأنابيب أنغامًا لباخ[2] أو لبروكنير[3]... وبينما كنا نتقدّم صعودًا، وهو يريني قطع الكوارتز والصّفّاح وخامات السّليكات الواضحة للعين المجرّدة في الحمأة القديمة، لم أعد أرى ذاك الأستاذ الحادّ الطّباع الّذي كان جلّ اهتمامه أن يفرض سلطته

---

(١) صخر ناري بركاني يتميّز بتكوينه الغني بالسيليكا.

(٢) عازف أرغن ومؤلف موسيقي ألماني ولد في ١٦٨٥ ومات في ١٧٥٠م يعتبر أحد أكبر عباقرة الموسيقى الكلاسيكية في التاريخ الغربي.

(٣) مؤلف موسيقي شهير وعازف أورغ نمساوي نمساوي ١٨٢٤-١٨٩٦.

ويثبت معرفته، بل بتّ أراه رجلا شجاعا، ذا خمسين عاما، يحرّكه الشّغف وقوّة الحركة والرّغبة في الاكتشاف.

وفور وصولي إلى القمّة غمرني سرور عميق.

إنّه سطح الصّحراء... اللاّنهاية أمامي، وفي الخلف وعلى الجوانب، الكوكب المستدير...

لم أعد أفكّر في شيء، واختزلت نفسي في صمتي وفي عينين تتأمّلان. ولم تعبر ذهني أيّ فكرة مهمّة ولا ذكيّة. كنت أتمتّع بأن أرى وأشمّ وأطلق الزفرات.

وقف توماس على يميني ورحنا نتأمّل منشرحَين المنظر البانوراميّ بإعجاب. وبقينا هكذا لوقت طويل، نتنفّس على نحو متطابق، ثمّ كان عليه أن يُسمّي القمم: هنا الأكافو، وهناك السّرقاط، وذاك الأسكريم[1]... كنت أسايره... فقلَّما تهمّ التّسميات، ولا ضرورة لها، إنّها تافهة، مجرّد أفعال بشريّة مضحكة إزاء عبقريّة الطّبيعة الّتي تحاول الكلمة أن تمتلكها. ولم يكن ما يقوله توماس يعجبني البتّة، كلّ ما كان يعجبني هو الحماس الّذي كنّا نتقاسمه.

وأخرج دونالد الوجبة الخفيفة الّتي حملها لنا: الخبز، والبيض المسلوق، والنّقانق. لم يكن الجلوس ممكنًا. فالفراغ يشدّنا والرّياح تهزّنا. إنّ المعتادين على الشّقاء يستريحون وقوفا. استندت إلى صخرة، وجلست سيغولين على حجر. كنت أتلذّذ، وأنا على ارتفاع ثلاثة آلاف متر، بطعم قلب البيضة البرتقاليّ وفتات الخبز الطّريّ،

---

(١) أحد أجمل الممرات الجبلية في العالم يشاهد فيه أجمل شروق وغروب للشمس.

مستمتعًا بما هو نادر الوجود في هذه الأنحاء.

- بخاخات الرّذاذ! المشروبات!

كان دونالد يجبرنا على ترطيب أنفسنا بانتظام. وعندما ينادي، علينا أن نشرب ونبلّل وجوهنا. وكنت أنزع من حزامي زادي الوحيد، المطرة وقارورة الرّذاذ. وابتسمت وأنا أرشّ مياه إيڤيان[1]. فقد أحسست بأنّني أجمع على جلدي في لقاءٍ خاطف كالحلم جبالَ الألب البيضاء بجبال الهقّار السّوداء.

وفي الأسفل، بعيدا جدّا إلى اليمين، خمّن توماس موضع وادي تاهات، ذلك التّعرّج الرّمليّ حيث أقمنا مخيّمنا. كان من المستحيل من هذا العلوّ أن أميّز شخصًا من جَمل. كنّا قد أصبحنا ملوك العالم.

وبعد الاستراحة أمرنا دونالد بالعودة. فصرخت:

- أنا في المقدّمة!

- هل ستعرف الطّريق؟

- لا تشغل بالك. أتذكّره جيّدًا.

لماذا قلت ذلك؟ من أين أتتني فكرة الاحتفاظ بذكرى الحجارة؟ كيف استطعت أن أنسى افتقاري لأيّ حسّ بالاتّجاه؟

غير أنّي شرعت في النّزول مُبتهجًا.

وتبعني توماس، لكنّ المطاف انتهى به إلى البقاء في الخلف، متباطئًا من فرط حمولته من الحجارة.

---

(1) ماركة مياه معدنية فرنسية تنبع من جبال الألب. (المترجمة).

كنت سكرانَ من الفرح. أمشي، أقفز، أندفع، أعدو، فلا مجال للالتفات، ولا مجال للتّثبّت من خطّ السّير. كانت قوّتي تبعث السّرور في داخلي. تحتمل ساقاي فارق الارتفاع، وكاحلاي يقاومان، تختار قدماي الصّخور الثّابتة وحدها متفادية الحصى المتقلقلة. وبدا تنفّسي لا ينضب ورأيتُ نفسي لا أُقهر.

ولا مجال للتّخفيف من سرعتي. أسرع! كان عليّ أن أمشي أسرع، دون تراخٍ. واعتراني نوع من الدّوار تمكّنت من السيطرة عليه. لم يسبق أنْ ملأ رئتيّ هذا الكمّ من الهواء. كان قلبي يفيض بالدّم حتّى أنّه يكاد ينفجر إن لم أتقدّم.

أمضي قُدما... كان الحذر يستدعي أن أنتظر رفاقي، لكنّني كنت مستمتعًا بقوّتي وحرّيّتي، كما كانت الوحدة تزيد من تمرّدي. وما نفع الحذر؟ كنت واثقًا من نفسي.

كنت أنزل بسرعة لساعات، مرّت كأنّها دقائق. دون أيّ تعب!

ها قد وصلت إلى الأسفل. يقع المخيّم على اليمين.

اكتشفت هيكلا عظميّا لجمل ابيضّت عظامه. عجبًا، لم ألمحه في طريق الذّهاب.

وتوقّفت فورًا.

يُفترض أن يكون المخيّم هنا، بعد هاتين الصّخرتين الكبيرتين.

لا أستطيع تحديد مكاني. دُرتُ حولهما عدّة مرات.

وفوجئت، ولم أرتبك، وخطوتُ بضع خطوات، إلى اليمين، إلى اليسار، إلى الأمام، إلى الخلف.

ماذا يحدث؟

لا شيء.

لم أتعرّف على شيء، كنت منذ قليل أتحرّك في حيّز معروف، وفي لحظة واحدة لم يعد كذلك. أين أنا؟

لم أغضب، لم أخف على نفسي، لم أفهم. بقيت مذهولاً ومدهوشًا. وفجأةً، ارتعشتُ. هل سيصل رفاقي؟

كان الجبل يتكرّم على الناظر بمساحةٍ خالية. من أين مررتُ؟ هل يجدر بي الصّعود ثانية. رحت أتقصّى الأنحاء وبدأ الشّكّ يساورني. ماذا يمكن أن تشبه الصّخرة غير صخرة؟ ما الّذي يمكن أن يشبه القمّة أكثر من قمّة؟ ووهدة أكثر من وهدة؟

وأيقنتُ في ظهر ذاك اليوم أنّي وقعتُ في فخّ انخداعي... كان الطّريق يشبه الطّريق لكنّه ليس هو. وناديتُ:

- دونالد!

و طمأنني صوتي. ظلّ قويًّا، رجوليّا... سيسمعونه بلا شكّ.

- دونالد! توماس!

وما من مُجيب.

- هووووهوووو...

أتاحت لي هذه الصّرخة الطّويلة تضخيم صوتي.

لقد نجحتُ. يبدو أنّني حصلت على ردّ.

عاد إليّ رجع الصوت، مكسرًّا من صخرة إلى صخرة... وبعد الصّدى حلّ السّكون.

سكونٌ قاطعٌ.

نهائيٌّ.

والآن، اتّضح الأمر: أنا تائه.

(11)

ظللتُ مصدوما حتّى ما عدتُ أفكّر حينذاك في الجوع ولا في العطش.

ما العمل؟

معاودة الصّعود... مستحيل، سيحلّ اللّيل.

الانتظار... ولكن انتظار من؟ ماذا؟

عضضت على شفتيّ حتى أدميتهما.

هل أصرخ؟ أصرخ أيضًا؟ أصيخ السّمع؟ أرغمت نفسي على ذلك منذ بعض الوقت لعشرين دقيقة. كان الأمر مُنهكًا! أستعيد قواي لبرهة وأبدأ من جديد...

لم تُمهلني الطّبيعة الوقت: احمرّت الشّمس، ثمّ تلاشى كلّ شيء من السماء في زفرة واحدة. أظلم المكان واختفت الأسوار. وهبّت رياح قوية جليديّة وشرعت تولول أعلى فأعلى عبر الصّدوع والوديان، وانقضّت عليّ.

بدأتُ أرتجف.

ولم يعد نداء رفاقي مُجديًا، كانت هبّات الرّياح العاصفة تجعل صوتي غير مسموع، فعَصْفُها يبتلع كلّ صوت ويقتل كلّ صدى. ولم

يعد صوت الصّحراء ينتمي إليّ.

وخلال بضع لحظات، اخترقني البرد...

ورحت أرتعد.

ولا بديل لديّ: عليّ أن أحتمي سريعا.

أدركتُ وأنا أبحث عن ملجأ وراء الكتل الصّخريّة أنّني لا أمتلك غطاء ولا لحافًا ولا كنزة ولا بنطالا. كيف سأقاوم عذاب اللّيلة الشّتويّة؟

التصقتُ بالصّخور الدّافئة المحتفظة بشيء من حرارة الشّمس. وهناك، رحتُ أفرك نفسي عليها مستفيدا من حرارتها، كحيوان عارٍ جُرّد من قوّته.

وتلك أيضا تلاشت بعد قليل.

وبدأت أسناني تصطكّ.

بدأت الرّياح تشتدّ، وتزداد إصرارا، وشرعَتْ تتسلّل إلى كلّ مكان.

فقرّرتُ حفر سرير. ستكون حبّات الرّمل غطاءً أتدثّر به.

ودون انتظار، بدأت أحفر، وأغرف، وأملّس. ثم انطمرتُ ودفنتُ نفسي.

هأنذا ممدّد على ظهري في وضعية الميّت المسجّى، ووجهي قبالة نجوم السّماء. كانت النّسمات تدوّم. في كواليس دماغي، يذكّرني صوتٌ بنبرةٍ لائمة بأنّه حريّ بي الآن أن أحدّد موقعي والسّماء تنشر أمامي نُصُبها المضيئة، غير أنّني لم أكن أرى شيئًا من تلك الجهات الأساسيّة، ولطالما اعتبرتُ اللّيلَ لوحةً وليس خارطةً، مُكتفيًا بنظرة

جماليّة عن النّجوم.

تائه.

لا شيء آكله.

وبيدي الّتي تَرَكْتُها حُرّةً خارج الرّمال، تفحّصت ما بقي في قعر مطرتي. أربع جرعات لا أكثر. وشربتُ واحدة.

أغمضت جفنيّ. وبدأ دماغي يثرثر، كم من الوقت يستطيع الإنسان أن يبقى دون شرب؟ لا أعرف... استشرت ذكرياتي الأدبيّة: لا بدّ أنّني قرأت ذلك في رواية، أليس كذلك؟ أربعة أيّام... ثلاثة، ثلاثة أيّام..هل سيمرّ الوقت طويلا حتّى يعثروا عليّ؟ بالمقابل، إذا لم يجدوني، فسيكون الوقت طويلا للموت...

ابتلعتُ ريقي بصعوبة.

أموتُ... هذا ما ينتظرني.

انفتحتْ عيناي. وأصابني الهلع. وعيتُ أخيرًا بما يحدث: أنا تائه في الصّحراء، دون مياه، دون طعام، أرتدي القليل. والقافلة الوحيدة الّتي شاهدتها خلال أسبوع كانت قافلتنا، وتمنراست أوّل قرية تقع على بعد مائة كيلومتر. إنّي أواجه خطرا جسيما.

ورحتُ ألهثُ محمومًا، مُضطربًا، مذعورًا، مهزومًا، منذ الآن، من اللّيلة الرّهيبة المقبلة، أنا مستعدّ للاستسلام للخوف الّذي سيقضّ مضجعي...

(12)

مُكفّن.

اضطجعت داخل ناووس من الرّمال تاركا وجهي قبالة اللّيل. وبدا حفلُ النّجوم أقلَّ اتّساعًا من الصّحراء، وأقلَّ امتدادًا من الرّمال. كان قلبي يضخّ الدّم بخفقات قويّة، مُتيقّظًا، جَزِعًا من وجودي حيًّا وسط عالم من الجماد، مُدركًا تمام الإدراك أن لا قيمة لي.

مُكفّن.

كم من الوقت سأتعفّن داخل صمت الصّخور هذا المفتوح على المجرّات؟ الوقت اللاّزم لأتحجّر... آه لو كان بوسعي النّوم! إنّ الرّاحة تحمل لي نعمة النّسيان. لكن بدلا من ذلك، كان وعيي صاحيًا، نشيطًا، لا يمنحني هدنة، كأنّه سيكتشف حلاًّ، كأنّ يقظته ستُجنّبني الموت.

مُكفّن.

سقطت إلى أسفل درك! وسأستمرّ بالتّضاؤل... وقريبًا سأضمحلّ في الغبار. وفي أعماقي، كنت أرغب في ذلك. أكاد أحبّ ذلك. أفضّل أن أموت على أن أنتظر الموت. الموت. هذا السّلام، سلام العدم، كان يشدّني أكثر من حدّة الإدراك التي لا تُحتمل، ولم يعد لعقلي خِيارٌ سواها.

مُكفّن!

كردّة فعل، تمنّيت أن أتكوّر على نفسي في وضعيّة الجنين على جانبي، لكنّ الضّريح الّذي بنيته كان يمنعني من ذلك. شيء غريب... لم أكن أعلم أنّ حفنات من الرّمل قد تزن إلى هذا الحدّ. هأنذا محشور تحت طبقةٍ بَنَيْتُها بهمّتي.

ما الّذي يحدث؟

آه...

بدا لي أنّني أعيا... وأنفصل... أو أنّني أُرفع... ما هذا؟ في عمق السّقوط، هل يمكن أن يكون هناك ارتفاع؟

واستمرّ ذلك...

أنا أرتفع، وأتجاوز الرّمال وأكوام الصّخور، ... وأطفو.

غير معقول: لي جسدان! أحدهما على الأرض، والآخر في الهواء. وأنا مازلت أرى، واهيةٌ الرّمال كالذّكرى، هذه الرّمال الّتي تُحاصر ساقيّ وصدري، كنتُ أطفو... يرتعد السّجين في الأسفل، ويرتفع المُنعتق خفيفا غير محسوس، يرتفع هادئا، يطفو فوق المشهد ولا يتألّم لا من برد ولا من ريح، يرتفع خفيفا حتّى من التنفّس.

الجوّ دافئ وجميل هنا.

يفقد وعيي مساره الاعتياديّ، مسار التّبصّر أو الحساب. ويتباطأ الزّمن، أطير، وتحبس السّماء أنفاسها، وتتوقّف النّجوم.

من أين جاءت تلك القوّة التي وضعتني عاليًا وأمسكت بي هناك؟

لا أفهم شيئا... هل جاءت من الخارج؟ من الدّاخل؟ لا أعرفها، ولا أحدّد مكانها. كلّ المعالم تُمْحَى.

وها قد بدأ التّغيير منذ الآن... يراودني إحساس بأنّ القوّة ستعود من جديد لتتدخّل. هذه القوّة...

تُكبّرني! نعم، إنّها تمدّد أطرافي، وتجعلني عملاقًا، وتبسطني على اتّساع السّلسلة الجبليّة. سأغمر المكان وأغطّي كلّ الصّحراء...

إنّ القوّة تلحّ.

تقطع أوصالي دون أن تحطّمني، بل على العكس، يغمرني هذا التّقوّض بالعذوبة، لذيذًا هنيًّا.

واجتاحني سلام.

بقيتُ ذاهلاً، لن أظلّ هكذا لوقت طويل، إذ أنّني استبقتُ الأمر وأدركتُ أنّني سأتنازل عن كرسيّ المشاهد هذا، وسأتلاشى في هذه السّكينة، سأذوب بلذّة مثل قطعة سكّر وسط المياه.

كان دمي يخفق بشدّة. فيض من السّعادة. أشعر بالاطمئنان. وقلبي لن يتحطّم.

أنهى الزّمن تغيير جلده: تجمّد، وأصبح غنيًّا، رنّانًا، كثيفًا، مُزوّدًا بمليارات الطبقات. ها هو سميك، إنّه الزّمن... ولا حاجة إلى إحصاء ثوانيه، إنّه كائن.

فرح.

لهب.

تشتدّ القوّة وأنا أسلّم نفسي إليها، وتستولي عليّ، وتخترق جسدي

وروحي. وها أنّي أتوهّج.

وأقترن بالنور.

حين تُمحى الأرض تُمحى السّماء. كنت أرتفع، ولكن ليس إلى أيّ مكان. عندما غادرت الزّمان، غادرت المكان، وفي طريقي أضعتُ إرادتي، إذ أنّها اتّحدت بإرادة أخرى. غادرتُ كلّ شيء، الصّحراء، والعالم، وجسدي. وقريبًا لن أكون سوى جزء من تلك القوّة.

لقد تلاشيتُ في تلك الطّاقة الّتي لا تتزعزع ولا تُقهر، الطاقة التي تعمل في الكون، وصرتُ أتلقّى منها رسائل...

كيف؟

كم هي صعبة هذه الرّسائل! ليس على الفهم، فهي تفرض نفسها، إنّما على أيّ لغة تتجرّأ على كتابتها. الكلمات، تلك الكلمات المسكينة، لا تمنح طريق الوصول إلى ما أعيش. ابتُدعت الكلمات كي تصف الأشياء، كالحجارة، والمشاعر، والوقائع البشريّة وشبه البشريّة. لكن أنّى لها أن تدلّ على ما يفوقها أو ما يُبنى عليها؟ أنّى لألفاظ محدودة أن تُعبّر عن اللّامحدود؟ أنّى للأسماء أن تقترن بما هو غير مرئيّ؟ هي العالقة بالأرض قد تقدر على تصنيف العالم، أمّا أنا فأخترق ما وراء العالم...

مُبهر.

ساطع.

أشعر بكلّ شيء.

في لمحة واحدة، أُدرك كلّ شيء.

تهرب العبارات. لا يهمّ! يهمس صوتٌ في عقلي بأنّني سأكتبها في وقت لاحق. أمّا في الوقت الحاضر، فعليّ أن أثق، وأسلّم نفسي، وأتلقّى...

أُعانق.

أدخل.

لهب.

أنا لهب.

نور يتزايد. لا يُحتمل.

وكما لم أكن أُفكّر في العبارات، كذلك لم أعد أرى بعينيّ ولا أسمع بأذنيّ ولا أحسّ بجلدي. أنا المشتعل بحريق، كنت أدنو من حضرة مّا. وكلما تقدّمتُ، قلّ خوفي. وكلما تقدّمتُ، خفّ تساؤلي. وكلّما تقدّمت، تفرض الحقيقةُ نفسها:

«لكلّ شيء معنى».

هناء...

كنت أسير في قلب مكان دون أن أسأل عن السّبب.

الشّعلة الّتي كنتها سَتُلاقي المجمر... وأخاطر بأن أضمحلّ فيه...

أتكون هذه آخر المراحل؟

نار!

شمس مُستعرة، أنا أحترق، أذوب، أفقد حدودي، أدخل إلى نار

الموقد، وأغوص في التّنّور.

نار...

(13)

استغرقت الأبديّة ليلة.

والقوّة الّتي رفعتني، أعادتني من جديد إلى الأرض برفق. ها قد انتهت رحلتي السّاكنة.

وشيئًا فشيئًا بدأتُ أستعيد العقل والذّاكرة.

شيئًا فشيئًا بدأتُ أنزل إلى ذاتي من جديد.

يبتعد النّور العظيم، لكّننا لا ننفصل. بقي لي أثرٌ منه، مدفونٌ في أعمق أعماقي، حيٌّ، متأجّجٌ، يستكشف الآن مسكنه الجديد ويرتاح.

وعادت إليّ الكلمات. بل أسوأ من ذلك، كانت تُسارع إلى نجدتي فهي تصرّ على وصف ما جرى، وهي مستعدّة لإعداد المحضر. تصطفّ مثل جنود الفكر، دون حتّى أن ترتاب في عجزها.

استعدتُ أنفاسي الطّبيعيّة وعدت إلى الاندماج مع جسدي المدفون في الرّمال بأعوامه الثّمانية والعشرين. تُذكّرني التقلّصات بمخدعي غير المريح، والرّعشات بدرجة الحرارة الجليديّة. والرّياح تصفّر، وتعصف، وتزداد شدّة.

وتسطع حقيقة فوق كلّ شيء: إنّه موجود.

مَن؟

لا أعرف ماذا أسمّيه. هو لم يُسَمِّ نفسه قط.

إنّه موجود.

مَن؟

من هو خاطفي؟ من ذا الّذي انتشلني من الوهاد وأمتعني بالفرح؟

تزحف الكلمات غفيرة فأوقف جيشها. وصف قوّة لا تسكن جسدًا، وصف حضور يستغني عن شكل، هل هذا ممكن؟ أتعذّب كي أتصوّر ذاك الّذي ذبتُ فيه، فهو لا يُرى ولا يُسمع ولا يُلمس ولا يمكن الوصول إليه. تخلّيت عن فكرة توصيف ما هو ليس بالحيّ ولا بالميت. وعلاوة على ذلك، كانت سيادة الكلمات -قواعد اللّغة- تتحايل عليّ، تُجبرني على التّحدّث عنه كشخص، في حين أنّه لم يظهر لي على هذا الشّكل. جعلتُ -وأنا أنفض رأسي- أطرد عنّي جنود المفردات.

من يكون خاطفي؟

أفكّر فيه بحنوّ.

مخطوف... أنا مخطوف... خطفني...

ولأسرع، ربما يجدر بي أن أسمّيه الله.

أو نار...

الله؟ لم لا...

نعم، لنقل الله! إن لم يكن هذا اسمه، فإنّه سيظلّ أكثر الأسماء ملاءمة. استُخدم اللّفظ كثيرًا حتّى أصبح أشبه بعملة قديمة محا الاستعمال علاماتها لكنّها حافظت على هالتها.

الله، وصلتُ إليه بقلبي. أو هو وصل إلى قلبي. وهنا، في داخلي، انحفر ممرّ بين عالمين، عالمنا وعالمه. المفتاح معي، والطّريق. ولن يترك أحدنا الآخر بعد الآن. أيّ سعادة تغمرني بوجوده! أيّ فرح! أقسم بإيماني الجديد تماما أنّني اختبرته وبقوّة.

ماذا علّمني؟

«لكلّ شيء معنى. لكلّ شيء سبب».

تثلج صدري هذه العبارة فهي تُترجم على نحو صحيح ما اختبرته.

«لكلّ شيء معنى. لكلّ شيء سبب».

من الآن فصاعدًا، عندما لا أفهم شيئا، سأنتظر فهمه يومًا. السّبب الّذي لن أُبصره، سببٌ يغيب عن ذهني وليس عن الواقع. فوحده إدراكي المحدود يُدْرِكُ حدودَ الفهم ويصطدم بها، أمّا الكون فلا، الكونُ أوسع من حدودي.

«هل سأموت قريبًا؟»

أذكر أنّني طرحت هذا السّؤال أثناء النّشوة الرّوحيّة. وتلقّيتُ جوابًا رائعًا، واضحًا وغامضًا في الوقت ذاته. غامض لأنّ القوّة لم تكن تُفصح لي متى سأفنى، وواضح لأنّها شرحت لي أنّ ذلك سيكون مُجديا وخارقا. كان يجدر بي أن أتعلّم قبول هذا الحدث، لا بل أكثر من ذلك، أن أحبّه. ذاك اليوم، يمثّل لي مفاجأة سعيدة! لن يجلب لي الموت معه نهاية! بل تغييرًا في الشّكل، سأفلت من هذه الأرض لأكسب وطنًا، وطن الوحدة الأساسيّة المجهولة. بكلّ صفاء

وسكينة، سأدنو من سرّ الموت كما أدنو من سرّ الحياة: باطمئنان!

يشتدّ الهواء في الجوار. وتتغيّر مكوّنات السّماء. سينسحب الظّلام. ها هو النّور الآخر.

استرخيتُ. وغمرني شعور بالارتياح. وتحت جلدي، وفي عضلاتي، وفي عروقي، تسري هدأة تشبه الشّبع، لا بل النّشوة.

بدا نور ضعيف مشوب يُبرز مرتفعات جبل تاهات. يحاول الفجر الاختراق. وأعود إلى الزّمن العاديّ، زمن الطّبيعة، بعد أن خرجتُ منه هذه اللّيلة كي ألامس الأبديّة.

ترتفع الشّمس إلى القمّة، بطيئة، شاحبة، كمريض يتماثل إلى الشّفاء، تصرّ وتلحّ، وأفهم! إذا كان نجم الشّمس ينظر إليّ، فهذا يعني أنّني في الجانب الخطأ: يقع وادي تاهات حيث نخيّم في شرق الجبل وليس في غربه. وأنا نائم في السّفح على الجانب الغربيّ. سيتوجّب عليّ تسلّق الجبل مرّة ثانية...

هل ستكون لديّ الطّاقة وأنا لا أحمل شيئًا أشربه أو آكله؟

وهمست لي القوّة: «الثقة».

فابتسمتُ وأنا أفكّر في الهديّة الّتي تلقّيتها للتو. الإيمان...

وصار قَدَرِي ممهورًا بخاتم: إمّا أن أضيع عن الدّرب مرّة أخرى وأموت مؤمنا، أو أن ألتقي بالمجموعة من جديد وأعيش مؤمنا. وفي كلتا الحالتين أنا مستسلم طَوْعًا وراضٍ. وأغمضتُ عينيّ المُتْعَبَتَيْن حتّى الجفاف، مُرتاحَ البال، وغفوتُ في الحال.

(14)

عندما استيقظتُ، كانت الشّمس قد استعادت موقعها ولونها.

نظرت نظرة حانية إلى النّجم الذي أصبح دليلي، فقد أدركت أنّه في الصحراء. إذا كنتَ تتحرّك، فيجب ألّا تنظر إلى الأرض وإنّما عليك أن تحدّق في السّماء. تبقى الشّمس والنّجوم الأدلّاء المُعتمدين، أمّا الأدلّاء الآخرون فهم ينتمون إلى مملكة الأوهام المتغيّرة.

تركتُ سريري الأرضيّ، ونفضتُ الغبار الملتصق على جلدي وثيابي، ثمّ أخذتُ نفسًا عميقًا ملء رئتيّ. كانت الحرارة تعود.

وعلى نحوٍ غريب، بدا لي المنظر مألوفا. لم تكن الصّدوع ولا الوهاد ولا أكوام الرّكام الصّخريّة تُظهر لي العداء. كانت تنتظر أن أعبرها، لا بل أكثر من ذلك، كانت تدعوني إليها.

سكبتُ قطرتيْ ماء في فمي، وأدرتُهما طويلا في لثّتي وحلقي المتقرّن من العطش. وعندما ابتلعتُ الجرعة أخيرًا، أحسست أنّ كامل جسمي يحاول تشرّبها. وأقسمتُ وأنا أُعيد إغلاق المطرة ألّا أعيد استعمالها إلّا بعد أن أعبر الممرّ الجبليّ.

لم يكن يسكنني أيّ اضطراب. كنت مُصمّمًا على إنجاز مخطّط وحيد: أن أصعد هذا الجانب المنحوس، ومن على القمّة، أصوّب

نظري إلى الموقع الّذي يختبئ فيه المخيّم، من أجل أن أحدّد طريقا جديدا للنّزول.

انطلقتُ نحو المنحدر الحجريّ. ولم يكن كاحلاي يرتجفان، ولا ساقاي، بل أبدت ساقاي صلابة بقوّة عزيمتي. كان يرفعني نشاط غامر من المسطّحات نحو المنحدرات الصّغيرة، ومن التّلال نحو الجروف، ومن أراضٍ مفروشة بالحصى المدبّب نحو كتل صخريّة لا تتزحزح.

وكانت همّتي تُذهلني. معنويّا، كنت فارغا وممتلئا. وجسديّا، لم أكن أحسّ بالجوع ولا بالعطش، كأنّ جسمي قد نوّم حاجاته الطّبيعيّة.

كنت مُدركًا ضعفي في الجغرافيا، لذلك اخترت القمّةَ مُحَدِّدًا واندفعت نحوها. لم تُخفني مجابهة المنحدرات الوعرة، ولم يُخِفْنِي أن أضع عليها يديّ وركبتيّ وأتسلّقها. آثرتُ تعقيد ارتقائي بأن أسلك الطّريق الأقصر بدل أن أحصي الأجراف والمنحدرات المضلّلة، وكنت متيقّنا من أنّه لا حلّ لي سوى أن أؤمن بتفكيري لا بذاكرتي العاجزة أمام حفظ المواقع والاتّجاهات.

في البداية جرى كلّ شيء بسهولة. سأبلغ دون شكّ القمّة المُطلّة. غير أنّ الجبل كان يرتفع كلّما تسلّقته. كان هدفي يتراجع... ومع ذلك، لم أكن مُضطرب البال. أمامي مهمّة، مُهمّة وحيدة كرّست نفسي لها. مُعاندًا، مقدامًا.

لا تردّد، ولا ندم، ولا شكوك. اكتفيتُ بتنظيم تَنَفُّسي.

وبعد بضع ساعات، ولأنّني كنت أقترب من المضيق الجبليّ وعضلاتي قد أُنهكت من الجهد، فتحت مطرتي.

«وعدك!».

وأعادني صوت داخليّ إلى الصواب.

أطعته، ورششتُ من مياه إيـفـيان على وجهي المحمرّ واحتفظت بالمطرة العالقة في حزامي.

«تابع. اصعد إلى الأمام. لا تنظر إلى الوراء».

هناك هبّات ريح متضاربة تعصف بالمرتفعات. ولحسن الحظّ كانت تخفّف من شدّة الحرارة.

عندما بدأت أنظّم إيقاع مشيتي وأنا أغنّي، اندفعت الرّياح داخل فمي وزادته جفافًا. لا مجال للغناء أبدًا! حافظت على شفتيّ مزمومتين، خشنتين، مثل ورقتي مبرد.

كنت أعزف في عمق روحي سيمفونيّة لموزار، وأنهيت ارتقائي والأنغام تحملني.

وهناك على القمّة، استسلمت لثلاث متع: متعة النّجاح، ومتعة التعرّف على المنظر المحيط، والمتعة الأثمن تَبَيُّنُ المنعطف الأبيض للوادي حيث يقع مخيّمنا.

ولم أستطع كبح نفسي من الصياح.

– هو هو!

وبدّدت صوتي عَصْفَةُ رياح. من المستحيل رؤيتي في هذه الظّروف!

يجدر بي النّزول مجدّدًا. اخترتُ الخطّ المستقيم. ستقاوم يداي الحجارة القاطعة وقصبتا ساقيّ المنحدرات الوعرة.

جازف يا إيريك!

أنهيت مطرتي. وتبخّر خيط المياه الباقي ما إن لامس لساني الجافّ المشتعل.

لا تتأخّر! عليك الوصول إلى الأسفل قبل حلول اللّيل وإلّا... وأَبَيْتُ التّفكيرَ وانطلقتُ.

لا الخوف يدفعني بين الرّدم الصّخريّة، ولا اليأس، إنّما الثّقة: كان عليّ أن أجرّب حظّي. إن لم أنجح فسأموت وهذا ليس بالشّيء الحزين... ولكن عليّ أن أحترم حياتي ما دامتْ تسمح لي بذلك.

لم تكن قواي تخونني. وانحدرتُ مُسرعًا. كان جسمي يبدو لي خفيفًا خفّة ظلّه الملتصق بالأرض من حدّة الشّمس.

كنت أخشى أن أجعل الحصى ينهار من شدّة انحدار الطّريق من تحتي. ولكن، ألن يكون ذلك طريقة ناجعة للتّدليل على وجودي؟

كنت أنزل بسرعة وقلبي يخفق بشدّة. لم أعد أتحكّم في نفسي، سرعة حركتي تنفلت منّي، المنحدر هو الّذي يُحدّدها. هل سأفقد توازني؟ كنت أشعر بأنّني مُتلهّف إلى الأمام، منجذب نحو النّزول.

- إيرررريك!

ولمحتُ خيالًا أزرق على مسافة مئات الأمتار في الأسفل.

وتوقّفتُ فجأة في مكاني.

كان أبايغور يرسل إليّ إشارة.

هل كان ذلك سرابا؟

رفعت ذراعيّ بدوري.

فلوّح بيده من اليسار إلى اليمين.

وأنا قمت بالمثل.

فباعد بين ذراعيه كي يعبّر عن النّصر.

ارتجفت شفتاي من الانفعال. لو بقيَتْ في جسمي الجافّ قطرة ماء واحدة لذرفتها من عينيّ.

واندفعتُ نحو الأسفل.

وبين الفينة والأخرى كنت أميّزه من بعيد ثمّ يختفي من جديد.

والآن لم أعد أراه.

أمازلتُ مخدوعًا؟

وبغتةً، عند زاوية إحدى الكتل الصّخريّة، وجدتُ نفسي أمام أبايغور.

كانت تُضيء وجهَه ابتسامةٌ واسعةٌ.

- إيرريك!

ومدّ ذراعيه والتجأتُ إليهما.

كم كنت مرتاحًا عند التصاقي بهذا الجسم النّحيل الطّويل الصّلب...

وكم سررتُ بضمّه إليّ...

كنت أسمع رنين ضحكته من جوف صدره... وأنا لأنّني أراه

بقلبي، قهقهتُ ورُحنا نشهق سويًّا.

ثمّ انفصلت عنه.

كان أبايغور يبكي وهو مغرق في ضحكٍ يمتزج فيه الضّيق والحياء.

تمعّن في وجهي، وضع يديه على كتفيّ، أومأ برأسه معبّرا عن قلقه، ثمّ مدّ لي مطرته.

واندفعتُ إلى فوهتها.

وبعد جرعتين، قاطعني.

واحتججتُ.

فأفهمني أنّه عليّ أن أشرب بجرعات صغيرة وإلّا فسأمرض، وقبلت بكلّ سرور تسليم إرادتي إلى صحراويّ حقيقيّ.

حينها أمسكني من ذراعي ومشى في الدّرب وهو يثرثر دون توقّف.

بأيّ معجزة كنت أفكّ رموز كلامه؟ أجهل ذلك. كان يشرح لي أنّه لم ينم اللّيل كلّه وأنّه نادى باسمي مائة مرّة عبر الجبل، وأنّه أضرم نيرانًا في مواقع مختلفة كي تكون لي كالمنارات، وفي الصباح عندما لم يرني أعود، استنتج أنّني كنت أئنّ مسحوقا في قعر فالق في الجبل. وكان قد أمضى نهاره يستكشف الصّدوع.

وفسّرتُ له بالكلمات والإيماءات السّببَ في عدم سماعي لنداءاته وعدم استطاعتي لمح نيرانه. كنت قد نمت في الجانب الآخر من الجبل.

وكان كلّما توجّهت إليه بالحديث ينفجر ضاحكا، كاشفا عن

مرحٍ شبه طفوليّ وهو يتأمّلني.

كان الطّريق متعرّجا وهو ما أتاح لي رؤية المعسكر والجِمال وأكياس النّوم...

وقف أبايغور مُغتبطًا وصاح في ذلك الاتّجاه.

فظهر دونالد وكذلك جيرار.

فأشار إليهم أبايغور ليعلمهم أنّني برفقته.

وظهر كلّ المشاة وصفّقوا لنا.

وقف أبايغور كأنّه على خشبة مسرح، وحيّاني وعانقني كأنّه قد نال جائزة.

كان عمق فرحه يهزّني.

وتابعنا رحلة عودتنا.

وما إن هدأ توتّري الذّهنيّ،حتّى بدأ التّعب يهدّني. ورغم أنّ أبايغور أوقفني مرارا كي أرتوي، كنت أترنّح إلى حدّ أوشكت فيه على الجنوح نحو الوادي.

- رعب حياتي، أنت كنت رعب حياتي! فلمدّة عشرة أعوام من الرّحلات الاستكشافيّة لم أفقد أحدًا قط.

ثمّ استدرك بأنّه لم يتحدّث سوى عن نفسه، وشدّني إليه قصدَ مسامحته.

ودنا مني جيرار كابتًا انفعاله.

- ما الّذي حدث؟

وحكيتُ له عن غبطتي في الأمس عندما بلغت القمّة، ونزوتي بالتّصرّف مثل كشّاف طريق، ونزولي العجول وأنا معتدّ بنفسي، ثمّ ضَلالي...

وعندما حانت اللّحظة الّتي كنتُ سأتحدّث فيها عن اللّيل، تجمّدتُ.

وألحّ جيرار:

- وبعدها؟

واكتفيتُ بالإشارة إلى أنّني احتميت من الرّياح والبرد بين الصّخور، وادّعيت بأنّني نمت ثمّ حكيت بضع كلمات عن يومي الأخير.

واطمأنّ قلب جيرار فأراد أن يروي ما حدث معه:

- قسّمنا المجموعة إلى فريقين. كنت أسارع مع دونالد إلى تمنراست كي نستأجر مروحيّة للعثور على آثارك... في النّهاية، هذا إذا كنت سأصل إليك في الوقت المناسب! آه، لا يمكنك أن تتخيّل كم مرّة قلّبت داخل رأسي الكيفيّة الّتي سأعلن بها الخبر لذويك...

كنت أنظر إليه يتلعثم، ويستعجل الكلام، كان مضطربا ومرتاحا في الوقت ذاته. وكم كنت أشعر بأنّني بعيد عن مشاغله! كم كنت أشعر بالبعد عن أعضاء البعثة وقد جاء كلّ واحد منهم على حدة كي يعانقني ويعبّر لي عن ارتياحه.

كان يسألني:

- هل خفت؟

وكنتُ أجيب في كلّ مرة:

- كلّا. فينظر إليّ حينئذ بهيئة مرتابة.

لم يكن بوسعي القول أكثر من ذلك... أوّلا: لأنّني لا أملك الكلمات الّتي تصف مغامرتي تحت النّجوم. وثانيا: لأنّي كنت أرتاب في أنّ حكاية كهذه قد تكون غير محتملة في نظر من أمضوا ليلة مريعة بينما كنت أعيش ذروة حياتي.

أخذوني إلى منخفض رمليّ بين شُجيرتين ضامرتين كان أبايغور قد أعدّ لي بينهما سريرًا مريحًا يتكوّن من ثلاثة أغطية سميكة ملوّنة. وقدّم لي طبقًا من لحم الضّأن وألحّ عليّ كي أمضغه ببطء.

وكلّما خفّ وجع جسمي بفضل الطّعام والشّراب، استأثر بي إعياء لا يوصف.

وقرّر دونالد أنّنا سنخيّم ليلة أخرى. وتبًّا لمخطّط الرّحلة.

قلت متأثّرا:

- أنا آسف.

- ليس عليك الاعتذار!

- إنّ هذا سيبطئ الرّحلة.

- في الصّحراء، نتوقّع ما ليس في الحسبان. وعلى كلّ حال، كما يقول أبايغور: «النّهار طويل والغد آت».

كان الطّارقيّ يجلس القرفصاء على مسافة عشرة أمتار منّا وينبش التّربة بواسطة مدية.

- ماذا يفعل؟

وشرح لي دونالد:

- يبحث عن مادة قابلة للاشتعال، فهناك نباتات ترتفع خمسة سنتمترات عن الأرض، وتستند إلى جذور بعمق عدّة أمتار.

وراقبتُ أبايغور وهو منشغل باستخراج تعريشة من تحت الأرض. ولم أعِ حينذاك مآثره الرّائعة: كان يعثر على الحطب في الصّحراء.

وقال دونالد متعجّبا:

- لو أنّك رأيت النّار الّتي أشعلها أبايغور هذه اللّيلة!.. كيف استطاع أن يُخرج من هنا ما يمكن أن يشتعل؟ لم يشعل نارًا كنيران البدو الصّغيرة المقتضبة، بل أضرم نيرانا متأجّجة مثل تلك الّتي يشعلها الهنود الحمر، نيرانًا قويّة وكبيرة يعلو لهبها نحو السّماء، غير معقول...

ابتسمتُ وأنا أفكر بالنّار الأخرى الّتي التقيتُها خلال السّاعات نفسها.

أعدّ أبايغور خلاصة من الأعشاب والنّباتات وحثّني على اجتراعها، ثمّ وضع مادة دهنيّة على جلدي وراح يدلّكني. ولم يستشرني، كان يفرض رعايته عليّ، ولم يكن يضايقني أن يصبح الوصيّ على صحّتي: كنت راضيًا وأنا متعب حتّى الإنهاك.

- تانمرت، أبايغول.

أومأ برأسه، ولمس جبيني، وعاد قرب النّار.

أدركتُ وأنا أتثاءب حتّى كاد فكّاي ينخلعان أنّ الأمر لن يطول

حتّى أغفو.

وَدنت منّي سيغولين ترجوني سيماؤها أن أمنحها بضع لحظات. فاستقبلتها وأنا أغمض جفنيّ.

- آه يا إيريك كم أنا مسرورة لأنّك عدت إلينا.

- وأنا أيضًا...

- صلّيت لأجلك، هل تعلم؟ صلّيت طوال اللّيل.

إزاء هذا البوح المؤثّر، اغرورقت عيناي بالدّموع. هل كنت سأقول لها؟ هل أعترف لها؟ هي من يؤمن بالله، هل سأعترف لها فيما بعد بالزّيارة الّتي تلقّيتها؟ وبدأتُ أرتعش.

وأردفتْ:

- لقد سمعني.

أزعجتني ملاحظتها... كانت تطعن ما هو فريد في قصّتي، وتُقحِم صلة بينها وبين الله، لا بل تواطؤًا. هل كان يجدر بي تخيّلهما، الله وسيغولين، وهما يهيّئان لي تجربة صوفيّة؟ هذا هراء وسخف مضحك.. ومع ذلك، لم يكن بوسعي الادّعاء أنّ صلواتها لم تنفع شيئًا.

وقلتُ متعجّبًا:

- إذا كان الله قد تدخّل، فكيف يمكن ألّا ينقذنا في كلّ مرة؟ لماذا يترك بعضهم يموتون والآخرين ينجون؟

فابتسمت وهي تعضّ على شفتيها.

- لماذا أنت؟ هذا هو سؤالك...

وصحتُ محتدّا:

- نعم، لماذا أنا؟

- لماذا أنت؟ هو يعرف.

وحدّقتُ في وجهها فاغر الفم. هل أخبرها بسرعة؟ بأيّ جزء أبدأ؟ كانت الأفكار تتزاحم داخل رأسي. هل كنّا نذكر «الشّخص» نفسه؟ ما كنت أدعوه الله هل يتطابق مع ذاك الذي تصلّي له؟ والقوّة الّتي صعقتني عند سفح جبال الهقّار، هل تشبه إله موسى أو المسيح أو محمّد أو سيغولين؟ يقينًا، لم أكن أعرف شيئًا على الإطلاق...

وختمتُ القولَ:

- هو يعرف ماذا يفعل.

فداعبتْ خدّي بلمسة وابتعدتْ.

انكمشتُ على نفسي مثل جنين تحت أغطيتي، وأسندتُ رأسي إلى الوسادة. كان أمامي جبل تاهات ينتصب بإطلالته الصّخريّة ووعورته المتآكلة. وتذكّرتُ فجأة أنّ كلمة «تاهات» تعني «عمود السّماء».

كنت حانقًا لأنّني قد تيقّنتُ من عجزي. عجبًا! قدّم لي الله هديّة كهذه ولستُ قادرًا على التّحدّث عنها؟ كم أنا تافه! أيّ نكران للجميل هذا الصّمت... لماذا أحوّل ما تجلّى لي إلى سرّ؟ ألم يكن الله قادرًا على التّجلّي لشاهدٍ أكثر تواضعًا...

وأغمضتُ عينيّ مُهتزًّا من هذه الفكرة الّتي تسلّطت عليّ: لأيّ قصد اختارني؟

لماذا أنا؟

(15)

تنساب قافلة في البعيد كمركب شراعيّ في الصّحراء.

هأنذا أتبختر فوق جمل. كان أبايغور قد قرّر ألّا أنهي الرّحلة سيرًا على الأقدام لذلك وزّع صناديق السّفر على الجِمال وتركني بعهدة طارق، صاحب القوائم الأربعة القويّ المكتنز ذي الوبر الأشقر، الأبيض تقريبا... تركتُ أديم الأرض إلى الأعالي. ومن أعلى مجثمي المتحرّك، كنت أستمتع بالمنظر البانوراميّ مثل أمير.

هل هناك ما هو أكثر رخاء من أن تلتحم مع جمل وتصيرا جسمًا واحدًا؟ كنت أجلس على مقعد الجمّال وقدماي عاريتان على عنق الدّابة، مستسلمًا لإيقاعها وهو يهدهدني مثل أرجوحة. إنّه استرخاء متحرّك، لكنه إمبراطوريّ. صحيح أنّ الجمل كان مثقلا بالأحمال، إلّا أنّه لم يكن يسقط بتاتا. كان ثبات طارق يقع في نفسي أيّ وقع، لم تكن الصّخور المدبّبة ولا الحصيّات المثلّمة الحد تحدّ من عزيمته. وفي كلّ مرة، سواء أتصدّى للدّرب أم تلافى تعرّجاته، كانت أصابعه اللّيّنة تقترن بالأرض مثل عجلات، بينما تعيد بقيّة أعضاء جسمه التّوازن. وإن كان تقدّمه في المسير مجزّأ غير أنّه كان يشكّل سلسلة من الانتصارات. كنتُ موقنا من أنّي انضممت إلى الفريق الرّابح.

أثناء الاستراحات، تأكدت أَسِفًا أنّه لم تنشأ أيّ علاقة بيني

وبين طارق. كان يجرجرني معه كما يحمل الصناديق، دون أن يعيرها اهتمامه. واللّحظات الوحيدة الّتي استرعيت فيها اهتمامه كانت عندما قدّمت له الطعام الّذي يشتهيه. خلال ثمان وأربعين ساعة، وعلى الرغم من تربّعي المستمرّ على ظهره، توصّلت إلى استنتاج هذه الخلاصة السّريعة: كنت مجرّد وجه وراء كيس الحبوب لا أكثر.

لكنّ ذلك لم يثنني عن الإعجاب بهذا الحيوان الخفيف اللّطيف، الصّبور الّذي لا يعرف التّعب، برأسه الجميل ذي العينين الوديعتين اللّتين رقّ لهما قلبي، كنت أحسده على صَفَّيْ الأهداب اللّذين يحميانه من رياح محمّلة بالرّمال. كان يمضغ أشواك الأكاسيا الطّويلة دون أن يُجرح، ويمشي بقدر ما يُفرض عليه، ويقاوم أفضلَ منّا بكثير ظروفَ بيئةٍ لا ترحم، حتّى أنفاسه المصبوغة برائحة العلف، كانت تعجبني. وكنت أشفق عليه عندما تزعجه ذبابة تنحشر بين ثنايا منخريه وتجبره على أن يهرّ، ثم يعطس.

كنت مستسلمًا لأحلام اليقظة كملك متحرّر من كلّ انشغال، أتأمّل المنظر، وكانت صور الصّحراء المجرّدة ذات السّمرة الصّافية تدعوني للتّأمّل أكثر فأكثر. وفي داخلي، كان ينمو الإيمان الذي بزغ عند سفح جبل تاهات. كنت أشعر بتحوّلي الرّوحي على نحو جسديّ تقريبًا، مثل شجرة يفيض نسغها على الأوراق وافرًا.

وكلّما اقتربنا من أسكريم صار الموقع أقلّ وحشة: كنت أرى مفترق طرقات وثلاث سيّارات جيب تعبر وحافلة صفراء تتمايل... وعند الأفق، استطعت أن أحصي عدّة قوافل.

وأشار أبايغور وهو يضحك إلى بعض رجال البدو المُتَرَاخين،

كانت أعناقهم منحنية، وأكتافهم مهدّلة، وكانوا يجرّون بشكل آليّ حبلا مرتبطًا برأس جمل يترنح.

تعجّب دونالد:

- هل تعرف تعريف القافلة حسب أبايغور؟

- لا...

- خيوط في طرف كلّ منها حيوان!

كان أبايغور يعاملني كصديق، فاختفائي وعودتي وإعيائي أتاحت لنا اختصار أسابيع من المؤالفة، وفتحت أقفال المودّة.

كان يتبدّى دافق العاطفة ومحتشما في الوقت ذاته. ففي عُرف أصله الطارقيّ، لم يكن يعبّر عن مشاعره، وإنّما كان يُثبتها بالفعل لا بالقول. وبدلا من أن يتمنّى لي «شهيّة طيّبة»، كان يحضّر لي الطعام. وعوضًا عن قَوْلِ «أحبك -ريكيم-، كان يُظهر مودّته بمزاج دائم المرح، ودعابات متتالية، واهتمام دؤوب بصحّتي، وإغداق في رعايتي.

وعند كل استراحة، كنّا نثرثر مثل نقّارَي خشب. ولم أعد أحترز من اختلاف لغتَينا، كنت أصغي إليه مستشفًّا كلماته، وأنا بدوري أثرثر بلا وازع. وأذهلت أبايغور السّاعة الّتي كانت في معصمي: قِدمها، ودقّتها البالغة، وثقلها. كان مندهشا من عدم ضبطي لها على الوقت.

- الساعة، أعرفها بالفطرة. ومن غير المجدي أن أزعج نفسي بتدوير النّابض كلّ يوم.

- لماذا تلبسها إذن؟

وشرحتُ له أنّ آلة الزّمن هذه تعود إلى جدّي فرانسوا. فبعد موته ملأتُ لياليَّ البيضاء لعشرين سنة بالقراءة والاستماع إلى الموسيقى الكلاسيكيّة. ومع هذه السّاعة الّتي وهبها لي في وصيّته، كانت الثّقافة آخر هداياه. وأنا كنتُ ألزم نفسي مُمتَنًّا بالاحتفاظ دائما بذكرى منه.

أظهر أبايغور تفهّمه ولفت نظري إلى التّمائم الّتي لم تكن تفارقه قطّ. وحكى لي بالتّفصيل قصّة كلّ تميمة منها. أعترف بأنّي كنت أتخيّل هذه الحكايات أكثر ممّا كنت أسمعها. وفي الواقع، كان سحر علاقتنا يتأتّى من أنّنا كنّا نثري بالخيال كلّ الكلمات الّتي لا نفهم معانيها.

وخلال ذينك اليومين، كان الزّمن يجري ميمونًا، مباركًا، وأنا غارق في التّأمّل. كنت على ارتفاع ثلاثة أمتار من الأرض متربّعا فوق سنام جمل، أردّد صلاة لا تتوقف.

كنت أحاول الاعتياد على الفرح.

ذلك أنّ هذه الغبطة جاءت بعد ليلتي الصوفيّة.

أتأمّل السّنين الّتي كرّستها للفلسفة وقد أثّر فيّ هيدغير[1]، فهيمن على سنواتي القلق، تلك الصّدمة الأساسيّة، جوهر الوعي ذاته حسب رأي المفكّرين المعاصرين، هذا القلق الذي طعنني في أوّل مساء في الصّحراء.

لكن هذا القلق، وإن كان قد جذبني من العالم، فإنّه لم يضعني في

---

(1) مارتن هايدغر: فيلسوف ألماني (1889-1976). (المترجمة).

مواجهة الله. ومقابل ذلك، حكم عليّ بالمزيد من العزلة والكبرياء، وجعلني مفكّرًا وحيدًا وسط محيط لا يفكر.

وخلاف القلق، أدخلني الفرح إلى العالم ووضعني أمام الله. كان الفرح يقودني إلى التّواضع. بفضله لم أعد أشعر بأنّي منعزل وغريب، وإنّما صرت ممتلئًا ومندمجًا. القدرة المُمسكة بكلّ شيء تعجّ كذلك في داخلي، وأنا أجسّد إحدى حلقاتها العابرة.

كان القلق يشعرني بأنّي عظيم، لكنّ الفرح أعادني إلى حجمي الحقيقيّ. لست عظيما بذاتي، بل بالقوّة التي حلّت فيها. كان اللّامتناهي يشكّل عمق فكري المتناهي، مثل بوتقة استوعبت روحي.

وصلنا إلى أسكريم بعد أن عبرنا وديانًا ظليلة وأنجادًا صخرية تطوّقها قمم رماديّةٌ عملاقةٌ محزّزةٌ وحادّةٌ يعمّها الصمت وكأنّها تحرس المكان، فيما كنا نتقدّم في المسير على ارتفاع ألفي متر.

يلتجئ الطّوارق في الصّيف إلى هنا، يأتون غالبا مع قطعانهم هربا من القيظ والجفاف اللّذين يجتاحان الأراضي في المنخفض، وقد بنى شارل دو فوكو صومعته على القمة.

- إنّها صومعة أسكريم... هل تدرك ذلك؟

كان جيرار يرمش عينيه ونظرته مفعمة بالحماس وهو سعيد لأنّه سيجهّز قريبا ديكور فيلمه القادم.

كنتُ أبدي التّململ، إذ أنّ تصّوري للسّفر قد تغيّر: فاتّجاه الرّحلة أقلّ أهمّية ممّا ستهجره وتتخلّى عنه. ليس الرّحيل أن تبحث،

بل أن تترك كلّ شيء، أقرباءك وجيرانك وعاداتك ورغباتك وآراءك وحتّى ذاتك. ليس الرّحيل سوى استسلام للمجهول، لغير المتوقّع، للاحتمالات اللّامتناهية، لا بل للمستحيل. أن ترحل، معناه أن تضيّع كلّ العلامات الّتي تعرفها، أن تترك جانبًا السّيطرة على ذاتك، والوهم بأنّك تعرف، أن تحفر في داخلك وتعثر على تدبير استشفائيّ كي تجعل كلّ ما هو استثنائيّ يظهر. والمسافر الحقيقيّ، يبقى دون حقائب ودون هدف.

صاح جيرار وهو يلقي نظرةً على مدخل أسكريم الضّيّق، المدخل الّذي ينبئ بالمصاعب:

- يا له من شخص رائع، فوكو هذا!

شارل دو فوكو... أدركتُ على نحو أفضل لماذا لم أهلّل مثل جيرار: سبق لي أن وافيت موعدي! كان لدى فوكو ما يقوله، لكنّه تجلّى لي عند سفح جبل تاهات.

كنت أعيد النّظر في ما حدث منذ عام وأنا أشعر بالدّوار. أيّ دور كان للقدر؟ أيّ دور للمصادفة؟ قبل بضعة أسابيع، دخل شارل دو فوكو إلى حياتي من باب فيلم لأكتبه وكان السّبب في هذه الرّحلة الاستكشافيّة. كان منذ اليوم الأوّل في الجزائر يشكّل بداية تحرّكاتنا ونهايتها، فلقد رحلنا من برجه في تمنراست لنصل إلى صومعته في أسكريم. وبهذا الشّكل، يلتقي الآن قدري بقدره على نحو حميم...

شارل دو فوكو، ذلك العربيد، حبيب الحياة وملذّاتها، عرف

تجلّيًا روحيًّا ذات يوم من شهر تشرين الأوّل في كنيسة القدّيس أغسطينوس في باريس.

وها أنا أعيش التّجربة نفسها عند سفح جبل تاهات، كرجع الصّدى.

كان في الثّامنة والعشرين.

وأنا أيضا.

اهتدى شارل دو فوكو بعد هذا الإلهام.

وأنا كنت أمرّ بالتّجربة نفسها.

والأمران لا يتشابهان في شيء ويتطابقان في كلّ شيء.

في شهر تشرين الأوّل من عام 1886، كان الضّابط الشّابّ اليائس يشقّ طريقه نحو كنيسة باريسيّة جديدة لامعة للقاء رئيس الدّير، وتوسّل إليه كي يعطيه دروسًا دينيّةً. «سيّدي، ليس عندي إيمان، ومع ذلك هذا ما يشغل بالي، لاسيّما منذ أسفاري في أرض الإسلام. هل تستطيع أن تعلّمني؟» استقبل رئيس الدّير ذاك الملحد بطريقة عاديّة. «اجثُ على ركبتيك، اعترف إلى الله وستؤمن». واعترض فوكو: «أسأتَ فهمي، الإيمان، ليس هذا ما أبحث عنه...». وردّ الراهب ذو الطّبع الحادّ: «أُجْثُ!» أذعن الرّجل واعترف بأفعاله المشينة. وكان كلّما ازداد بوحا بمكنونات قلبه يزداد اضطرابا. «هل أنت صائم؟». «نعم». «اذهب للمناولة!». ومع القربان المقدّس، تلقى شارل دو فوكو النّور بشكل نهائيّ.

هل هو الّذي دعاني منذ مائة عام إلى الصّحراء كي يواجهني مع

الله؟ هل هو في عداد الشّفعاء؟

كنت أحيانًا أُحجم عن التّفكير، إذ أنّ ما يدور في خلدي كان يقصيني آلاف الأميال عن فلسفتي العقلانيّة.

ومع ذلك، كنت أعود دائما إلى تلك اللّيلة الرّائعة والسّاعات الّتي سبقتها... أتذكّر استعجالي النّزول وحيدًا، وتصرّفي المتهوّر، ونفاد صبري: هل كان ذلك هو اللّاوعي أو الاستشعار بقرب موعد؟

هل للمصادفة وجود؟ أليست بالأحرى الاسم الّذي يلصقه بالواقع أولئك الّذين يريدون تجاهل شيء اسمه القدر؟

أعلن أبايغور أنّنا سنقيم المخيّم عند سفح جبل أسكريم، وأنّ من يرغب في تسلّقه يمكنه القيام بذلك هذا المساء ومشاهدة المغيب، والآخرون سينتظرون إلى اليوم التّالي.

وسألني:

- ماذا ستفعل أنت؟

- مثلك.

فغمزني وراح ينشغل بالدّوابّ، وأشعل النّار، وسخّن الشّاي، ثمّ أمرني باتّباعه.

ورحنا نصعد حتّى وصلنا إلى قمّة عالية.

كانت تمتدّ أمامنا مئات الكيلومترات، بعضها منبسط وبعضها الآخر تشغله المرتفعات. وكانت الطّبيعة تعزف سيمفونيّتها على أورغاتها العظيمة وترافق مهابة المنظر فتزيد من ألوانه القزحيّة، إذ

كانت السّماء موشّحةً بألوان نادرة تتدرّج من البرتقاليّ الضّارب إلى الزّرقة، وتنتهي بالبنفسجيّ الدّاكن مرورًا باللّازوردي واللّيلكيّ.

واطمأنّ أبايغور إلى جلستي البعيدة عن خطر الانزلاق، وابتعد كي يصلّي على سجّادته.

بدأتْ نظرتي تجاه سلوكه تتغيّر، صرتُ أفهمه. كان وهو يجثو على الأرض يرضخ للّامتناهي ويرضى بمكانته المتواضعة ككائن فانٍ، يتطهّر من خطاياه وغطرسته البشرية. يحمد الله ويشكره لأنّه على قيد الحياة، ويطلب القوّة كي يُحسن العمل دائمًا ويسلك خير سلوك.

وبدأت أشعر منذ الآن بالحاجة إلى تلك الصّحبة الرّوحيّة. ولأوّل مرّة، شرعتُ أصلّي خَجِلًا مرتبكًا.

لم أكن أعرف ما العمل... عندئذ جثوتُ راغبًا في محاكاته، وضممتُ راحتَيَّ أمام الغسق.

في البدء تصادمت أفكار كثيرة في ذهني. لم أكن أفكّر إلاّ في نفسي، بقيت المركزَ. ثمّ، كأنّ الصّلاة فرضت نفسها على صلاتي، بدأت أتحرّر وأطلق رغباتي وشكواي وشاعريّتي وأغدو هفّافا، أثيريّا. كنت أزيل العوائق من ذاتي. وأنا أتلاشى هكذا، وألتقي سلاما لم أكن أنا مسبّبه.

وفجأة لامستْ يد أبايغور كتفي.

هو الشّاهد على ورعي، انتظرَ أطول ما بوسعه، لكنّ اللّيل قد هبط وذكّرني بأنّ علينا النّزول بسرعة.

بدا لي مسرورًا لأنّنا تقاسمنا هذه اللّحظة، وإن كان قد صلّى حسب قواعد الإسلام، وأنا... دون أن أكون في إطار أيّ دين.

وعند عودتي إلى نار المخيّم، أخرجتُ من حقيبتي كتابًا كنت قد دسست بين صفحاته بعض العبارات الّتي نسختها.

كانت أصابعي ترتعش وهي تفتح طيّات الورقة الّتي كنت أبحث عنها. هل تنبّأتُ بذلك حقًّا؟

وعلى نور النّار الحمراء، قرأتُ العبارات الّتي دونتها قبل ثمانية أشهر.

«أسلّم نفسي إليكَ،
اصنع منّي ما تشاء
فَمهما فعلْتَ بي
حَمَدْتُكَ عَلى ما فعلْتَ.
أنا مستعدّ لكلّ شيء، أقبل كلّ شيء،
أيا ليت إرادتك تحلّ عليّ وعلى كلّ خلائقك.
لا أريد شيئًا آخر يا إلهي.
أُودع روحي بين يديك.
أقدّمها لك يا ربي، بكلّ الحبّ الكائن في قلبي، لأنّي أحبّك، ولأنّ حاجتي إلى الحبّ هي أن أهب نفسي لأضعها بين يديك دون حساب، بإيمان وثقة لا حدّ لها، لأنّك أبي».

لقد كتب شارل دو فوكو صلاة الهجر هذه. بعد أن اكتشفتها أثناء أبحاثي، دوّنتها، إذ أنّني رأيت فيها جوهر روحانيّته الغريبة جدًّا عنّي في ذلك الحين.

واليوم ترتعش كلّ عبارة في داخلي، وأوافق على أصغر كلمة فيها. وأحمَدُ، وَأُفْتَنُ، وأُعْجَبُ، وأعشق.

وارتعشتُ.

تذكّرتُ ذلك اليوم من شهر حزيران عندما نسختُ هذا النّصّ. هل كنت مدركًا أنّني أتهيّأ لموعد؟ هل أرسل إليّ عبر الزمن إشارة لم أفهم مداها حتّى؟ دون شكّ... يدي الّتي كنت أحسبها حرّة لم تكن سوى أداة بيد القدر.

أعدتُ طيّ الورقة، أغمدتها في جيب قميصي مقسمًا على الاحتفاظ بها. كنت أجهل في ذلك الوقت أنّ أرشيف الذّاكرة لا يؤتمن عليه، لا سيما فيما يخصّ الصّلوات...

كان لهب أغصان الأكاسيا يضطرم، وأنا أرقب النّار ولعابي يسيل من الرّائحة القادمة على العشاء.

يا لها من رحلة غريبة في جبال الهقّار: ظننتُ نفسي ذاهبا إلى مكان مّا، ووصلت إلى مكان آخر. يالِ سموّ هذا الخِداع! وهكذا نقلتني يدٌ في غاية الأمان.

(16)

- هل توجد صحراء في بلادك؟

- لا.

وحدّق أبايغور في وجهي مصدومًا.

- حقّا؟

وأومأتُ برأسي مؤكّدا، فتنهّد قائلًا:

- ماذا تفعل إذنْ؟

فهمتُ سؤالَه، وكان مقصده منه: ماذا تفعل كي تتأمّل؟ تتقوّى الحياة الدّاخلية من الخلاء الخارجي. هل تتوصّل هناك إلى الإحساس بالحرّيّة؟ هل تحرّك الطّبيعة مشاعرك بقوّتها؟ هل تتأمّلها؟ هل تتطلّع إليها بإعجاب؟ في أيّ مكان تبجّل نقاءها؟ هل تجد لك موضعًا في مكان بشريّ محض؟ ألا تشعر بالاختناق بين ملايين البشر والأشياء؟ إلى أين تلتجئ عندما تريد الانعزال والاستمتاع بالوجود؟

وَرَدًّا على سؤاله، أشرتُ إلى السّماء...

فهمَ وابتسم. وبدا راضيًا: كان لديّ نصيبي من الصّحراء!

ولم أشأ أن أذكر له أنّ السّماء في أوروبّا غائمة، ملوّثة، تغزوها الإنارة المدنيّة الضارية، وتظهر لي أقلّ بكثير ممّا تظهر له... كان أبايغور سيرثي لحالي، لذا حرصت على إعفائه من ذلك.

إنّ الكائنات الّتي نرحل عنها بعد أن نكون قد أحببناها كثيرا يَعْلَقُ بها حزنٌ خفيّ صامت. كانت هناك هالة ساطعة من الحزن تلفّ أبايغور والجمال والمنظر. وفي يومي الأخير ذاك، بدأت أشعر بالحنين قبل الأوان.

في الحظيرة الّتي كنا ننتظر فيها سيّارات الجيب لتأخذنا إلى تمنراست، كانت الجمال تستمتع بظلّ أشجار الأكاسيا الرّحيم وتمضغ الأعشاب الطّويلة، أما الرحّالة فكانوا يستريحون إلى جانب حقائبهم، ويستمتع غالبيّتهم بالقيلولة. وكان دونالد ينهي مهمّته كدليل سياحيّ بتصنيف التّقييم والملاحظات.

تراجع أبايغور إلى الخلف مرتبكًا.

- لا أعرف إن كنت سأحبّ بلادك...

كان من الواضح لي أنّه لن يحبّها. لا بدّ من أنّه سيشعر أمام الغزارة المادّيّة بالخوف نفسه الّذي ينتابنا أمام الفراغ الصّحراويّ. ومع ذلك، بأيّ حقّ كنت أقلّل من شأنه؟

وضعتُ خفية بين أصابعه الورقة التي حضّرتها.

- إذا جئت إلى أوروبّا، فاتّصل بي. سأهتمّ بك كما اهتممت بي.

أمسكَ بالورقة وقد غيّر الانفعال من سحنته، فهو يعرف مثلي تماما أنّه لن يذهب إلى قارّتنا أبدًا، لكنّه كان يقدّر موقفي. وكي يشكرني، لمس قلبه وقلبي، ثم خبّأ أرقام هواتفي في ردائه الأزرق الواسع.

وعضضتُ على شفتيّ. كم كنتُ كارهًا لنفسي خشيةً من هذا الرّحيل! بعد هذه المغامرة، كان حريًّا بي أن أمتلك حكمة قبول كلّ

ما هو زائل.

سألني أبايغور:

- هل لديك بيت في باريس؟

- لا.

وراقَ له جوابي إذ كنتُ أبدو في عينيه قويًّا هكذا. يعرف البدويّ أنّ كلّ شيء يبلى، وكذلك الجدران، لكنّ ما لا يبلى أبدًا هو هذا الفضاء الواسع الرّحب. ولم أذكر له حينذاك أنّني كنت أستأجر عليّةً متداعية.

- أبايغور! *ما توليد؟*

كان هناك أربعة رجال من الطّوارق مقبلين بسرعة. فنهض أبايغور إلى ملاقاتهم سعيدًا برؤيتهم.

أمعنتُ النّظر في الجلد الشّفّاف لسحليّة ميتة ترقد فوق الجذوع اليابسة عند قدميّ.

وطني... هل لي وطن؟ كنت أعرف الآن أنّني آتٍ من لا مكان وراحل إلى اللّامكان. فقد أصبحت رحّالة.

ونظرتُ إلى الشّمس في السّماء.

وطني؟ الصّحراء وطني لأنّها وطن الّذين لا وطن لهم. هي وطن الرّجال الحقيقيّين المتحرّرين من القيود. هي وطن الله.

- أوه، أوه، شجرة القرّارة[1].

---

(1) نوع من تمور الصحراء.

كان توماس منشرحًا أمام شجرة كثيرة الأشواك مشقّقة اللّحاء، وطارق جَملي القديم الشّجاع يقضم غصنًا منها.

قال متّجها نحونا:

– شجرة تمر الصّحراء...

كان توماس يتابع عمله، يشبّك في دفتره أوراقا صغيرة، تمثّل كلّ ورقة منها شذرة من الواقع. كان يريد أن يحصي كلّ شيء، المعادن والنّباتات والحيوانات وحتّى الحشرات... بحماس لا يخبو كأنّه سيطوّع الفيض ويتحكّم بالوفرة ويمدّن الفوضى. ووراء هذا الشّغف الموسوعيّ، لاح لي قلقٌ خفيّ. فحين نحصي اللّامتناهي، ألا يعني هذا إنكاره؟ كان توماس يغرز الملاحظات، ويحيط بالدّوائر، ويدوّن، ويقيّد في سجلّه، ويعرّف... ولا شيء يمكن أن يفوته أو يفاجئه. وفي الحقيقة، كان ما يقلق راحته إسراف الطّبيعة الخارقة اللّامحدود وضروب إبداعها المتواصل، وكان كالمراهن في نادي القمار، يطمع في تدجين المصادفة، ويخاطر كي يكون هو الرّابح. ولم يكن إحصاؤه المسعور في خدمة اللّامتناهي، بل كان ينكره.

أمّا موقفي فكان مُناقِضًا له: أنظر حولي لا كي أتعلّم بل كي أنسى ما تعلّمته، وأسعى بكلّ ما أوتيت إلى أن أفهم من كلّ كائن، من كلّ عنصر، من كلّ منظر، شيئًا مختلفا عمّا قاله البشر عنه. وفي الواقع، كنت قد أخذت على عاتقي مهمّة أن أمتلئ من الفراغ.

من كان على صواب؟

لا أحد...

كلّ مسافر يستجيب للنّداء الّذي يستبدّ به.

هكذا أمضى جيرار الكثير من الوقت في صومعة أسكريم المعاد بناؤها. فيم كان يفكّر؟ بدأت أدرك أنّه بِيَدَيْهِ العظيمتين يشبه بدويًّا رحّالة في العديد من الأوجه: فهو عابر لمسكنه بباريس أكثر ممّا هو مقيم فيه، هناك شقّته صارمة المظهر، لها أرضية برتقاليّة اللون، دون أثاث يذكر عدا طاولة مكتب وسرير، تركن أغراضه داخل صناديق خاصّة للنّقل، فهو دائم العمل على تصوير فيلم جديد أو رحلة، ومن الملابس لديه بذلتا عمل أو ثلاث، وهو لا يتعلّق بأيّ ملك مادّيّ. كان التّشابه بينه هو الملحد وبين شارل دو فوكو من نمط مختلف لا يُدرك.

أمّا سيغولين فقد التقت برهبان «إخوة يسوع الصغار» لساعات. اندلعت هذا الصّباح مشاجرة بينها وبين الفلكيّ جان بيير لأنّه لم يستطع منع نفسه من قذع الراهبات فهاجمته بكلّ ضراوة. وكنتُ شاهدًا على معركتهما دون أن أتدخّل...ورغم أنّه منذ ليلتي تلك، كان يجدر بي الإحساس بأنّي أقرب إلى المؤمنة وعليّ أن أعارض الملحد المناضل، لم أكن أجد نفسي في الواقع، في أيّ منهما: كانا يتشبّثان بدوافع بسيطة، فالإيمان والإلحاد كلاهما يثبت رغبة مشبوهة في إدراك آراء قطعيّة، لا هذا ولا تلك كانا يحتملان المنهج أو الشّكّ أو التّساؤل. وحين يؤكّدان خياريهما يبيّنان أنّهما لا يريدان التّفكير، بل إنّهما، يريدان الكفّ عن شيء اسمه التّفكير. إنّهما لا يريدان إلاّ شيئا واحدا فقط: التّخلّص من التساؤل. كانت تجمّد عقليْهما نفحةٌ من الموت.

بينما كان أبايغور مندفعًا في محادثة حامية مع أصدقائه، استغللتُ الظّرف كي آخذ جرابه، و دسستُ فيه بحركة سريعة، السّاعة الّتي

أعجبته كثيرًا. سيكتشف وجودها عنده بعد رحيلي. أطلبُ الصّفح من جدّي، وأنا أؤكد له أنّ الطّارقيّ سَيُدِير نابضها كلّ يوم بعد صلاة الفجر.

- آه، لا، لا، أصابع قدميّ... يا لها من مجزرة... لم أرَ شيئًا كهذا في حياتي...

كان مارك ومارتين اللّذان ارتعبا من دخول الصّحراء قبل أسبوع مضى، يتساعدان في علاج أقدامهما. كانت الرّحلة في نظرهما مختزلة في مسار من العقبات التي تمّ تجاوزها وذهناهما منشغلان بكلّ واحدة منها لا أكثر. لم تغيّر التّجارب فيهما شيئًا. حملا معهما ذكريات كثيرة: صُوَرًا، وبثورًا ممتلئة بالماء وضربات شمس، فقد جمعت الصّحراء كلّ ظروف الجزع: العزلة، وغياب البشر، والرّتابة، والفاقة، والصّمت. كانا يجاهران دون تردّد بأنّ سعادتهما في العودة إلى محيطهما. ولم يكونا سعيدين بالصّحراء، وإنّما بالدّخول إليها والخروج منها سالمَين. كانا راضيين على نفسيهما.

سألتْ مارتين:

- هل ستصل سيّارات الجيب في موعدها؟

فردّ زوجها:

- وما أهمّية ذلك؟ ما جدوى المواعيد وسط مكان كهذا؟ هل يعرف السّائقون فعلًا المكان واليوم والسّاعة؟

- أُسكت، أنت تخيفني!

كانا يلهوان بأن يُخيفَ أحدُهما الآخر، ويتوقّعان الأسوأ على

الدوام. وعلى الرّغم من خيباتهما المتكرّرة، كانا يثقلان على نفسيهما بالمخاوف، وحين تحلّ المشاكل فجأةً، لا يفرحان، وإنّما حسبُهما الشّعور بالارتياح.

- تأخّرت بالفعل سيّارات الجيب هذه...

وإذا كانا يتوجّسان ألّا تصل، فإنّي على عكسهما أخشى أن تظهر فجأة.

كانت فكرة مغادرة جبال الهقّار تشعرني بالوهن. كلّما مضى الوقت وابتعد عنّي جبل تاهات، أصبحتْ نظرتي تجاه ليلتي المتلألئة بالنّجوم ثاقبة أكثر... ألم أفتتن بسرعة؟ ألم أفسّر بطريقة روحانيّة عوارض بدنيّة صرفًا؟ العطش والجوع والإنهاك، كلّ ذلك أصاب جسدي وأوصلني إلى الهذيان. ماذا عن حالة الارتياح الكلّيّ الّتي أحتفظ بذكراها؟ ألا تعود إلى منطقة أسفل سرير دماغي الّتي أفرزت مادّة الأندروفين[1]؟ وهذا الإيمان الّذي أحسسته في داخلي، ألم يكن صورة للاطمئنان الّذي ولّده جهازي العصبيّ كيميائيًّا كي يسمح لي بالسّيطرة على خوفي وتعبي؟

كانت التّفسيرات المادّيّة لليلتي تتدفّق وتصبح أكثر تعدادًا، وأكثر تفصيلاً ووضوحًا. كنت أستمدّها بيسر، إذ أنّ مهنتي فيلسوفًا كانت توفّر لي المادّة وتحثّني على القيام بذلك. وإذا كنت لم أقل شيئًا بعد عودتي من جبل تاهات، فليس ذلك بسبب الخفر أو عوز الكلمات، وإنّما بالأحرى لأنّ جانبًا عقلانيًا منّي كان يمرّغ حكايتي في السّخرية.

---

(1) مادة تفرزها بعض خلايا الجهاز العصبي المركزي ولها خواص مسكّنة شبيهة بالمورفين.

ومع ذلك...

حين تصمت لجاجة عقلي اللاّئمة، أستعيد الفرح والسّلام والغبطة.

لكن ماذا سيبقى من كلّ ذلك بعد أن أغادر الصّحراء؟ هل سينفلت إيماني وأنا أعبر الحدود؟

- ها هي سيّارات الجيب!

تهلّل وجها مارك ومارتين. ووقفا، وحملا حقائبهما واتّجها صوب السّيّارات.

وتسمّر أبايغور أمامي. وتأمّل أحدنا الآخر بصمت لا نهائيّ. كنّا نعلم أنّنا لن نلتقي مجدّدًا أبدًا.

ابتسمَ. وابتسمتُ بدوري.

وفي هذا الوداع، على الرّغم من التّأثّر الّذي بلّل مآقينا، تغلّب الفرح على الحزن: وناب عن ألم الفراق سعادتُنا لأنّنا تعارفنا.

وضع يده على كتفي وحدّق في وجهي بقزحيّتيْ عينيْه الصّافيتيْن، ومع أنّه يصعب عليّ اليوم أن أذكر بدقّة ما إذا كان قد قال ذلك أو سمعته دون أن يتفوّه به، أعطاني نصيحته الأخيرة كابن للصحراء:

- لا تنسَ ما لا يُنسى.

خاتمة

مرّت خمس وعشرون سنة بين الرّحلة الصّحراويّة والقصّة الّتي أكتبها اليوم.

احتمل إيماني الاغتراب بقدر ما احتمل مرور الزّمن. لم يتوقّف عن النّموّ، هذا الإيمان الّذي كان يقتصر على خيط ماء وسط الصّحراء، اتّسع حتّى صار على قياس نهر. وهكذا هو ميل الينابيع عادة...

احتفظتُ بهذا الإيمان السّرّيّ لوقتٍ طويل وكان يغيّرني في الخفاء. بينما كان يحفر مجراه في داخلي، وكان إدراكي للعالم يزداد غنًى: أقرأ كتبًا محرّضة عن الرّوحانيات، من الشّرق ومن الغرب أيضًا. أدخل إلى عالم المتديّنين عبر الباب السرّيّ الصّغير في آخر حديقتهم، باب الشّعراء الصّوفيّين، أولئك البشر الهاربين من الناس، البعيدين عن العقائد والمؤسّسات، أولئك الّذين ينقلون الإحساس أكثر ممّا يُلقون المواعظ. إضافة إلى نظرتي الإنسانية الحانية على عقائد الشّعوب، صارت لديّ تلك الشّعلة الدّاخليّة الّتي أتشاركها مع أشخاص من كلّ زمان ومكان على الأرض. كانت روابط أخوّة تُحاك ويتّسع الكون.

لدى عودتي من جبال الهقّار، جلس الكاتب اليرقة الّذي كان

نائمًا في داخلي منذ طفولتي أمام طاولته يكتب القصص الّتي تمرّ بخاطره. لقد ولدتُ مرتين، مرّة في مدينة ليون في العام1960، ومرّة في الصّحراء في العام 1989.

ومنذ ذلك الحين، تعاقبت روايات ومسرحيّات وقصص قصيرة وحكايات، خطّتها ريشتي تحت سماء من السّكينة والصّفاء، بصعوبة تارة وبيسر تارة أخرى، ولكن بشغف دائم. منحتني اللّيلة الملهمة تناغمًا داخليًّا. ينبض جسمي وقلبي وعقلي بتآلف عوضًا عن انتهاج كلٍّ واحدٍ منها طريقَهُ بمفرده، وأهمّ ما منحتني إيّاه هذه التّجربة هو الحقّ. تظلّ الموهبة عديمة النّفع إذا التزمت بخدمة نفسها، دون أيّ هدفٍ آخر غير الظهور إلى العلن للتّعريف بذاتها ونيل الإعجاب والتّصفيق لها. يجدر بالموهبة الحقّ أن تنقل قيمًا تحملها وتتجاوزها. وإذا كان قد قُدّر لي ذات ليلة أن أكون إناءً لتلقّي الوحي، فيحقّ لي الكلام عن ذلك إذن.

أخاف حتّى الارتجاف من أن يُساء فهمي على بَوحي هذا... لا، أنا لا أرى نفسي نبيًّا، ولا كمن نزل عليه الوحي. لا، لا أعتبر نفسي بوقًا من أبواق الله، كلاّ، إنّي لا أعدّ نفسي أهلاً للنّعمة الّتي تلقّيتها وعملتُ بها كلّ حياتي، فلن أتمكّن أبدًا من استحقاقها.

مع ذلك، أنا لا أخاتل كما يفعل أغلب النّاس: أحيا وأكتب انطلاقًا من موضعٍ في روحي، لأنّ روحي رأت النّور -ومازالت تراه- ومازالت ترى كلّ الأنوار عبر الغياهب الأشدّ ظلامًا.

احتفظت بيني وبين نفسي بليلتي السرّيّة حتّى ذلك اليوم الذي جاءت فيه إحدى الصّحافيّات تضايقني بسؤالها الملحّ، وقد كرّرته عدّة

مرّات: «كيف يمكن أن يتألّق فيك حبٌّ ساطع للحياة؟ كيف يسكن سلامٌ كهذا في قلب كتاباتك؟ تستطيع أن تعالج أكثر المواضيع مأسويّةً دون محاباة ولا استمالة للنّفوس، أنت لا تعرف اليأس. فبأيّ معجزة تفعل ذلك؟» كنت أعرفها وأقدّرها، كما أعلم أنّها معارضة. وأمام حذاقتها وإلحاحها، اعترفت بأنّني عرفت الله عند سفح جبل تاهات.

وسألت تستفسر:

- هل ستعود إلى هناك؟

- أعود إلى هناك... لماذا؟

مرّة واحدة تكفي. مرّة واحدة فقط.

فبعد أن نلتقي بالحبّ اللاّمرئيّ، نحسن تدبّر أمورنا بهذه الهبة.

المدهش في هذا الكشف هو أنّك على الرّغم من البيّنة الّتي تشعر بها، تبقى حُرًّا، حُرًّا في عدم رؤية ما حدث، وحُرًّا في أن تكتب عنه كتابة موجزة، وحُرًّا في صرف نظرك عنه، وحُرًّا في نسيانه.

لم أشعر في حياتي قطّ أنّني حُرٌّ إلى هذا الحدّ إلّا بعد أن التقيت الله، لأنّني مازلت أحتفظ بالقدرة على إنكاره. لم أشعر بالحرّيّة هكذا قطّ إلّا بعد أن لعبت بي يد القدر، لأنّني مازلت قادرًا على اللّجوء إلى التّفسير بالتّطيّر والمصادفة.

تتبدّى التّجربة الرّوحيّة تجربة لا تُدرك بالعقل: قوّة الله لا تُبطل قوتي، والاتّصال بين الأنا والمطلق لا يمنع من وضع الأنا في المقدّمة في وقت لاحق، وحدّة الإحساس القويّة لا تلغي شيئًا من تساؤلات العقل.

«آخر نهج يسلكه العقل هو أن يعرف أنّ هناك عددًا لامتناهيًا من الأشياء الّتي تفوقه، وهو في غاية العجز عن إدراكها». غير أنّ العقل قلّما يستكين تلقائيًا، يجب أن نحثّه على ذلك. إنّ باسكال[1] العقلانيّ الأسمى، الفيلسوف، وعالم الرّياضيات، ذا الذّكاء الخارق، كان مضطرًا في الثّالث والعشرين من تشرين الثّاني في العام 1654، على تسليم أسلحته. صعقه الله نحو منتصف اللّيل. واكتشف منذ ذلك الحين معنى حياته كلّها، حمل معه خفيةً في بطانة سترته القصّة الغامضة لتلك اللّيلة الّتي كان يدعوها **ليلة النّار**.

«يختلف الإيمان عن البرهان، فالبرهان شيء بشريّ والإيمان هبة من الله. والقلب هو الّذي يدرك وليس العقل. هذا هو الإيمان، الله مُدرَك بالقلب وليس بالعقل».

أثناء ليلتي في الصّحراء، لم أتعلّم شيئًا، لكنّي آمنت.

وكي يجاهر إنسان هذا العصر بإيمانه يجدر به أن يكون شجاعًا. فإن سئلتُ: «هل الله موجود؟» فسأجيب: «لا أعرف». ذلك لأنّني فيلسوف، أبقى غنوصيًا[2]، وهذا هو الشّيء الوحيد الّذي يقبله العقل. ومع ذلك، أضيف: «إنّه موجود». يختلف الإيمان عن العلم اختلافًا جذريًّا. وأنا لا أخلطهما. وما أعرفه ليس ما أؤمن به، وما أؤمن به لن يكون أبدًا ما أعرفه.

---

(1) عالم رياضيات، فيزيائي، مخترع، فيلسوف، ولاهوت فرنسي. (1623-1662).

(2) كلمة تعني المعرفة، والمعرفة هنا تدلّ على المعرفة السرية لله ويدّعي اتباع هذا المذهب امتلاكها. بالمعنى الفلسفي: كل ما يتجاوز مجال التجربة لا يمكن معرفته، لذايمكن القول معناها: الـ«لاأدري».

أمام التّساؤل عن وجود الله يتقدّم ثلاثة أنواع من الأشخاص الصّادقين: المؤمن الّذي يقول: «لا أعرف، لكنّني أؤمن بأنّه موجود»، والملحد الّذي يقول: «لا أعرف، لكنّني أقول إنّه غير موجود»، واللّامبالي الّذي يقول: « لا أعرف، ولا يهمّني الأمر».

ويبدأ الاحتيال عند ذاك الّذي يجاهر: «أنا أعرف أنّ الله موجود». أو «أعرف أنّ الله غير موجود». هذا يتخطّى مقدّرات العقل وينعطف نحو مذهب المحافظين، المتديّنين منهم والملحدين، في اتّجاه طريق التّعصّب المُهْلِك وآفاقه المميتة. إنّ التّأكيدات لا تخلق سوى الجثث.

وفي عصرنا هذا كما في الماضي، يقتلون باسم الله. ومن المهم جدًّا ألّا نخلط بين المؤمنين والمُرَائين: أحبّاء الله هم أولئك الّذين يبحثون عنه وليسوا أولئك الّذين يتحدّثون باسمه مدّعين العثور عليه.

إيمان المؤمن هو طريقة لفهم اللّغز. مثل قلق الملحد... يسكنه اللّغز.

وكلّما تقدّمتُ في السّنّ، ازداد يقيني بأنّ مذهب الغنوصيّة موقف يرفضه الأغلبيّة. يصرّ البشر على المعرفة! هناك غنوصيّون مؤمنون، وغنوصيّون ملحدون، وغنوصيّون لامبالون، في الوقت ذاته، هناك ملايين الأشخاص الّذين يصرّون على الخلط بين الإيمان والعقل، وعلى رفض تعقيد العقل وعلى تبسيط فكره محوّلين بذلك مشاعرهم الشّخصيّة إلى حقيقة كونيّة.

علينا أن نعترف بجهلنا وأن نثقّفه. سلامُ البشر يكلّف هذا الثّمن. كلّنا إخوة في الجهل وليس في الإيمان. وبهذا الجهل الّذي

يجمعنا سنتمكّن من أن نتسامح مع المعتقدات الّتي تفرّقنا. ينبغي أن أحترم لدى الآخر أوّلاً ما أحترمه لديّ، ومن يريد أن يعرف وهو لا يعرف، فسأحترم اختلافه عنّي، باسم ما أؤمن به.

عندما عدتُ إلى المعسكر في الوادي الرّمليّ بعد ليلتي النّورانيّة، أسأت كثيرًا تفسير ما اعترفت به سيغولين الّتي صلّت إلى الله كي ينجّيني من تلك المحنة. واستشطت غضبًا، مثلما ظللتُ أفعل حتى اليوم، لأنّ الله في حالات الظّلم والكارثة لا يتدخّل من أجل فرد! فالله ليس هو من ينقذ البشر، بل هو من يعرض عليهم أن يفكّروا في خلاصهم.

وهذه القصّة وإن كانت تهزّ بعض البشر، فإنّها لا تُقنع أحدًا... أنا مدرك لذلك. لقد عذّبتني... كم مرّة أردت أن أنقل الطّمأنينة الّتي تشتعل في سريرتي؟ كم مرّة تمنّيت، أمام أصدقاء حائرين أو غرباء يائسين، أن أبدو مُقنعًا! لكن واحسرتاه، لستُ مُعديا... فالحجج العقلانيّة وحدها لها القدرة على التّوصّل إلى القبول وليس التّجارب الرّوحيّة.

لم أفعل شيئا سوى الاختبار، لن أبرهن على شيء إذن، وأكتفي بأن أكون شاهدًا.

وأنا أكتب هذه الصّفحات، ارتجفتُ، وابتهجتُ، ولهثتُ، وأمسكتُ أنفاسي، وصرختُ متحمّسًا، وشُلِلْتُ من كثرة الانفعال إلى حدّ أنّ هذا الكتاب أرسلني مرّتين إلى المستشفى... هي ليلة لا تنضب، ليلة النّار هذه تستمرّ في تشكيل جسدي وروحي وحياتي، مثل خيميائيّ مَلَكيّ لا يترك عمله أبدًا.

هي ليلة على الأرض وضعتني في فرح الحياة بأكملها.

ليلة على الأرض جعلتني أستشعر الأبديّة.

ثمّ بدأ كلّ شيء.

إريك إيمانويل شميت

ليلة النار

بعيدًا عن صخب العواصم الأوروبيّة وضوضائها، يرتحل كاتبٌ ومخرج سينمائيّ في عمق الصحراء الجزائريّة رفقة فريق من السيّاح والمستكشفين.

جاء الكاتب العقلانيّ لاقتفاء آثار القدّيس شارل دو فوكو من أجل كتابة سيناريو فيلم عن سيرته، جاء محمّلاً بأسئلة أستاذ الفلسفة وتصوّراته الماديّة، فضاع وأضاع أسئلته في صحراء الطوارق...

ليلةٌ واحدةٌ من الضياع دون ماء ولا غذاء كانت كفيلةً بقلب حياة الكاتب رأسًا على عقب، وليس الكاتب هنا غير إريك إيمانويل شميت نفسه، وهو يرسم لنا الرحلة التي خاض غمارها في سن الثامنة والعشرين وزعزعت كلّ قناعاته الفلسفيّة الماديّة، لتفتح قلبه على عالم من السكينة والسلام، وتضع قدميه على مسارٍ جديدٍ سيحدّد كلّ أعماله الأدبيّة فيما بعد.

"ليلة النار" رحلةٌ في المكان تنقلب فجأةً إلى رحلة داخل عوالم الذات لتفضح غرورها الزائف وتضعها أمام تناقضاتها في مرآة الكون:

"عندما أقول أنا موجود، فهذا يعني أني لن أكون موجودًا بعد ذلك، وكلمة حَيّ ليست سوى المرادف الحقيقي لكلمة فانٍ، يصبح كبريائي هو عوزي، وقوتي تمسي نقصاني، ويمتزج الفخر بالخوف"

شوقي العنيزي


9 789996 698903




مرايا


+965 98810440

@TAKWEENKW